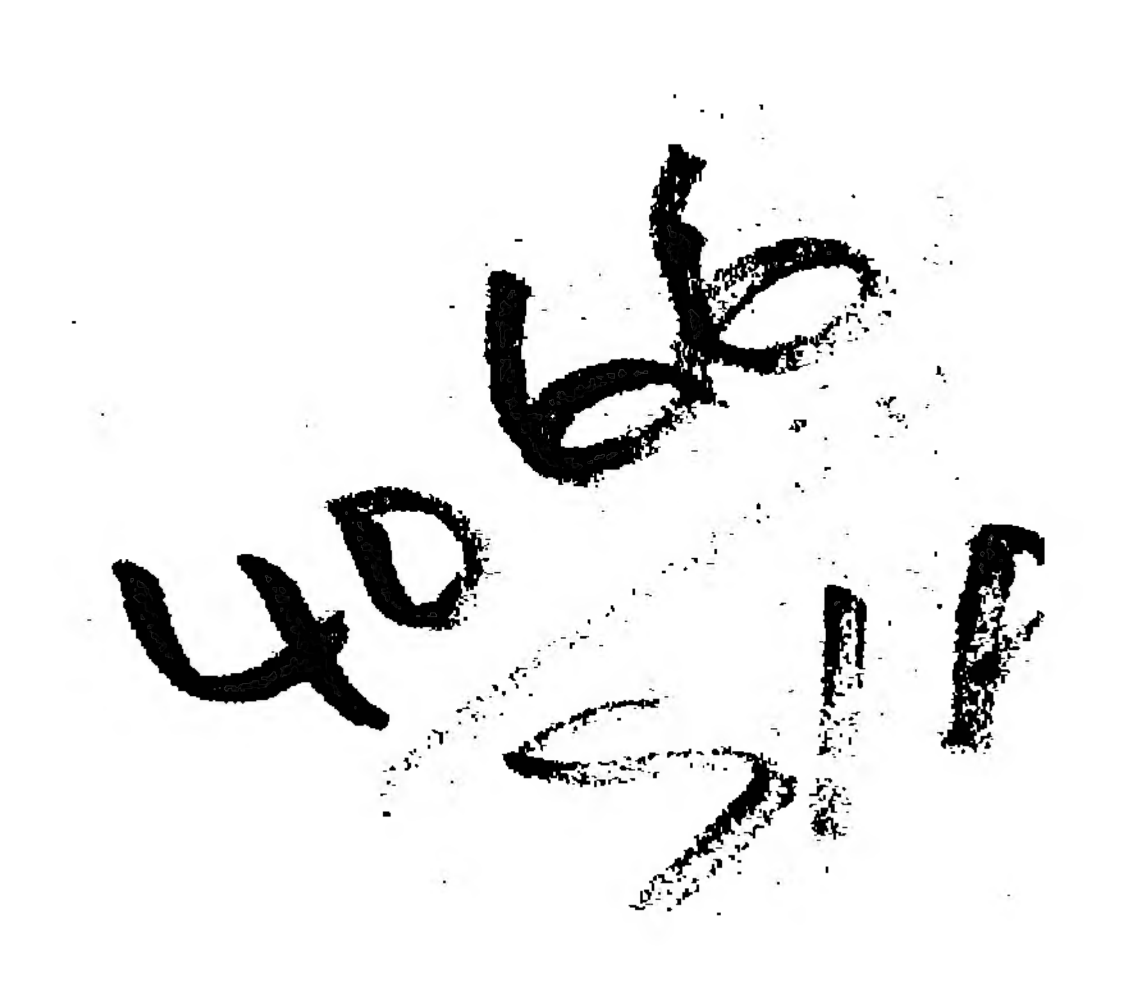


حضارة العرب في الأندلس

رسائل تاريخية في قالب خيالي بديع

وضعها

الكاتب القدير

السيد عبد الرحمن البرقوقي

صاحب مجلة البيان

على لسان رحالة مصري رحل به الى الاندلس في منتصف القرن الرابع الهجري ونحله هذه الرسائل التي اودعها علم الاندلس كله — في روض من البلاغة مونق مشرق طلق نضير. ولون من البيان يكاد لحلاوته يؤكل بالضمير

١٣٤١ — ١٩٢٣

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

مطبعة المكتبة التجارية بشارع عابدين بحارة فايد نمرة ٣ بمصر

اهداء الكتاب

إلى روح أستاذى الأمام الشيخ محمد عبده

الرجل العظيم الذى لم تقع عينى على مثله رجاحة عقل وسجاحة خلق وعبقرية ذهن وسمو نفس وعظمة روح وهمة تناطح النجوم . وكرماً يشامخ الغيوم . وأدباً إلهيا من الطراز الأول حتى لكأنما نشأ في حضانة الله - إلى الرجل كل الرجل الذى يحب معالي الأمور ولا يحب سفسافها

تلذ له المروءة وهي تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

إلى الرجل الذى لم يفزع اليه فازع ولم يستصرخه مستصرخ إلا كان الصارخ له، انجاز ما أمله — إلى الرجل الذى لو مد الله فى أجله . وبقى إلى أن رأى ثمار غرسه ونتاج عمله لكان للأديب اليوم شأن غير هذا الشأن ، وحال غير تلك الحال، لأنه عظيم فهو يحب كل عظيم ويمده ويشبه وقدا ، ولا يحقد ولا يحسد لأن رئيس القوم لا يحمل الحقدا

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

* * *

عالم أشبهوا القرود ولكن خالفوها في خفة الأرواح

* * *

لهم حلل حسن بهن بيض وأخلاق سمجن فهم سود

* * *

أنا في أمة تداركها الله م غريب كصالح في ثمود

إلى روح أستاذي الذي علمني وربّني وأدبني فأحسن بحمد الله تأديبي — فكنت خرّيجه ولا فخر، وكنت غرس يديه ونعمة عين. وكما ارسل الله إلى صفيّه وخيرته من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله صلوات الله وتسليماته عليه ملكين كريمين سقطا عليه كسقوط الندى وهو يلعب مع اخوته من الرضاعة خلف بيوت ظئره رضوان الله عليها. فأضجعاه فاستخرجا قلبه فشقاه فتناولا منه علقة سوداء ثم غسلا قلبه بثلجها السماوي حتى أنقياه، وكان ذلك كمدرجة لمقام النبوّة ومهمة الرسالة العظمى - أرسل الله الينا هذا الأمام، وطلع علينا كما يطلع البدر في دجنات الظلام ونحن في الازهر نتعسف الطريق، ونتقحم تلك الجراثيم فهدى من ضلالة، وانار من ظلمة، وانتشلنا من مضيق ومرتطم، وأقامنا على المناهج النيرة، والمحاج الواضحة وغسل عقولنا حتى أنقى ادرانها، ثم فاض علينا فيض علمه وأدبه

فالى روح هذا الامام أهدى هذا الكتاب

عبدالرحمن البرقوقي



حامداً ومصلياً

« أما بعد » فهذا كتاب وضعته قديماً وأسميته « حضارة العرب فى الاندلس » ولقد أشرب قلبى منذ طراءة العمر وريعان الصبى وجن النشاط حب التاريخ الاسلامي عامة وتاريخ هذا الفرع الاندلسى منه خاصة . ـ فكان مما عنيت به فضل عناية ، وكان مما أولعت به الولوع كله ، النظر في تاريخ الاندلس وحضارة العرب بها منذ افتتاحهم اياها الى أن تأذن الله لهم ، وكلب عليهم الاسبانيون ، وكلح لهم الدهر وجهه ، وتقلصت ظلال تلك الحضارة بعد أن فاء بها الفيء على شرق الارض وغربها . ـ وبلغ من همي بهذا التاريخ أنى بعد أن استوعبت كل ما وصل الينا من تآليف العرب ذهبت ألتمس ما كتبه مؤرخو الغرب ومستشرقوه على ذلك العصر حتى اقتنيت أمهات أسفارهم وعهدت الي كثير من أصدقائي الذين يحسنون الفرنسية والانكليزية أن ينقلوا الي كل ما يتصل بغرضى من مباحث هاتيك الكتب ، ومضيت فى ذلك ومضوا فيه حتى ستجمعت الكثير وما يزيد على الكثير . ثم

خطر الدهر من خطراته ونشأت ظروف أواخر سنة ١٩١٠ ميلادية أى قبيل اخراج « البيان » اضطرتني أن أزايل القاهرة وأقيم في بلدى - مسقط الراس . ومكان الفراس . فأفسح لى ذلك فى الوقت ، ومد لى في النظر ، وبسط فى مطارح التأمـل ، وأنى لأتقرى يوما تاريخ أبي الفداء اذ صدف أن أخذت عينى هذا الخبر الذى لاحفل له ، والذي يقتحمه فى العادة النظر ، ولا يكاد يتلفت اليه ، أو يتوقف عليه ، وهو ما رواه من « أنه في سنة ٣٤٥ هجرية عمل عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس مركبا كبيرا وحشد فيه كثيراً من بضائع الاندلس وأرسله الى بلاد المشرق لتباع هذه البضائع هناك وتستبدل منها بضائع مشرقية » . ففتحت على هذه العبارة أبوابا من وراء أبواب ، وامتدت الـكلمة في نفسي حتى خرج من حروفها كتاب ، وألهمت أن أضع ما جمعت من علم الاندلس كله في صدر رحالة مصرى يقوم من الاسكندرية وافداً الى الأندلس في مركب الناصر هـذا - فهو يري ويسمع ويقص ويدون ويصف ويستعين بما يعلمه وما يراه وما يفتق له الخاطر ويهيىء الفكر — في رسائل يضمنها وصف تلك الحضارة على اختلاف ألوانها ، وشتي فنونها ، وصف مؤرخ أديب فيلسوف يرحل للتاريخ وفلسفته فيدرسه في كتبه وفى مواضعه ورجاله

وأسبابه وحوادثه ، وبذلك يستجمعه من أطرافه ، ويحويه من أكنافه ، وتم التقدير على أن أضع على لسان هـذا الرحالة الذى ذهب الى الاندلس وأقام فيها زهاء عشرين عاما خمس رسـائل يكون عنوان الاولى « من الاسكندرية الى المرية » والثانية « من المرية الى قرطبة » والثالثة « مقامي في قرطبة » والرابعة « العلوم والآداب والفنون فى الاندلس » والخامسة « تقويم الاندلس وتاريخها » ... وهو بديهي أنه لا يقدم على هذا العمل مقدم الا بعد أن يحيط بتاريخ هذا العصر علما، ويقتله كله دراية وفهما ، فليس يكفيه أن يكون ملما بتاريخ الاندلس ، ولا بتاريخ الدول الاسلامية لهذا العهد ، بل لا بد مع ذلك من أن يكون واقفاً على تاريخ الامم الاخرى المعاصرة ، والتي لها علاقة بالدول الاسلامية اذ ذاك مثل الدولة الرومانية وما اليها . وكذلك درست تاريخ هذا العصر من جميع نواحيه . ثم وضعت يدى في هذا العمل ، وأخذت فى كتابة هذه الرسائل ومضيت لطيتى حتى اذا سرت شيئاً طرأ عليّ ما أجاءنى الى القاهرة وفى تلك الآونة طلع « البيان » وطفقت أنشر فيه نبذاً من هـذا الـكتاب . وكان المنتظر أن يكون « البيان » بحيث يغرى باتمام الكتاب ونشره كله بين صفحات هذه السنوات التى خلت ، ولكن جاء الامر

على حد ما قيل : طلبت بك التكثير فازددت قلة : ــ فلقد استبد بي هذا البيان ، واستأثر علي بنفسي استئثاراً ، وتدفق في أذاته ، وألح في سطواته ، حتى أنه بعد أن التهم الوفر أكلا وشربا ، ألوى بنفسي[1] قلباً ولباً ، وتركني لا أفكر الا فيه ولا أتشاغل الا به .

فلو ان لي تسعين قلباً تشاغلت
جميعاً فلم يفزع الى غيره قلب

وكذا مصير كل من يمتهن الادب في الصحف وبخاصة اذا كان هو صاحب تلك الصحيفة له غنمها وعليه غرمها ، ببلد سقط فيه نجم الآداب الرفيعة وطاش سهمها ، وقدما قيل لحكيم ان فلانا رجل عاقل فقال هل هو متزوج فقيل له نعم فقال : اذن ذهب عقله ! وعلى هذا القياس لو قيل لي ان فلانا فيلسوف أو عالم او أديب لقلت هل هو صاحب مجلة في مصر فاذا قيل نعم قلت اذن ذهب والله في الذاهبين . فأنه اذا كان المتزوج يجد من هم واحدة وما يكون منها ما لا يدعه لهم نفسه فيذهب بذلك عقله أو بعض عقله فان صاحب المجلة يصيبه هم المئات الى الالوف ممن يقرؤن ولا يفون بحق ولا عهد فهو ينفق من نفسه وما أعده لنفسه

(١) يعني استبد بها

وهم يمحقونه محقاً حتى ينقص بهم على زيادتهم ويقل على كثرتهم ولا يزال ذلك شأنهم وشأنه لا هو يتركهم وعليهم حقه ولاهم يدعونه في غير هذه الحالة ، وبذلك يذهبون بفلسفته وعلمه وأدبه مذاهب العقم ، ويبلونه بالاغتمام ، ولا عقل مع غم ، ولا قلب معهم فذهب اذن والله صاحب المجلة وكان من ضياع العقل في وزن من تزوج لا بزوجة واحدة بل بألف زوجة ..

* * *

«وبعد» فهذا هذا ــ وفى هذه الآونة ــ فى هذه الفترة التى احتجب فيها البيان ، والتى وجدت فيها نفسى ــ جرى بيني وبين أحد أفاضلنا يوما حديث أفضى الى ذكر هذا الكتاب . وآنست من هذا الفاضل رغبة حارة صادقة فى تمامه ، وطبع ما تم منه الى الآن في الاقل على حدة ، فكان جواب الفعل أسبق من جواب القول ، وقدمت هاتين الرسالتين الى المطبعة على أن أردفهما قريباً ان شاء الله بالرسائل الثلاث الباقية . وهاتان الرسالتان يكادان يكونان كتاباً مستقلا . يصح أن ينزلا من الرسائل التالية منزلة مدخل الكتاب من الكتاب .

والآن يجمل بنا أن نقدم بين يدى الناظر فى كتابنا هذا تنبيهات يخلق به أن يلحظها ويتنبه عليها واليكها :

١

يلحظ قارىء هذه الرسائل فى بعض المواطن شيئاً يشبه أن يكون حشواً أو زيادة أو فضولا أو شططا أو خروجا عن الموضوع أو ما شئت سمه. وذلك مثل كلامنا على الخمر « انظر صفحة ٧٨ » وكلامنا على حب الوطن « صفحة ١٢٠ » فليعلمن القارىء أنا لو قصرنا كلامنا في هذه الرسائل على البحث التاريخي البحت دون تطريتها بمثل هذه المعانى الغضة اللينة المستطرفة التي تستروح اليها النفوس، وتريح على القارىء عازب نشاطه[1] ـ لجاءت كزة جافة ثقيلة مملة . وليس للكاتب اليوم في أى باب من أبواب العلم والادب منتدح عن أن يداور القارىء على القراءة ويراوغه[2]، ويحتال بكل ضروب الحيل التى تغريه بالقراءة وتشوقه الى الاطلاع ما دامت الرؤس كأن بها خبالا ، والنفوس كأن بها دائما ملالا على أنه اذا كان الغرض الذى نترامي فيه[3] بهذه الرسائل هو وصف حضارة العرب فلماذا لا نهتبل هذه الفرصة و نتصدى ـ ما وجدنا الى ذلك سبيلا ـ لكل معنى من معانى هـذه الحضارة ومبلغ ما وصل اليه العرب فى هذا المعنى، ومن ثم لم نتعرض لمثل ما تعرضنا

(١) تريح ترجع وتعيد وعازب غائب (٢) داوره على كذا وراوغه أراده عليه (٣) كقولهم اليوم نرمي اليه

عبثا ، وانما لنصف لك كل ألوان الحضارة العربية على اختلافها أولا وبالذات ، ولننفي عن القارىء ما عساه يلم بساحتـه من السأم والملال ثانيا وبالعرض

٢

قد يلمح القارىء من أسلوب هذه الرسائل وطريقة الوصف والتفكير فيها مسحة من روح جيلنا ، ويراها مصطبغة بصبغة عصرنا ، وهذا وان لم يكن في مكنتنا اجتنابه لأنا ضرورة كوننا من أبناء هـذا الجيل وامتزاج روحه منا بالدم واللحم لا نستطيع الخروج عن كياننا ، الا أنه مع ذلك نكاد نكون قـد قصدنا اليه قصداً لأنه يدخل فى باب التطرية التى لا بد منها نفياً للملل الذى قد يعرو القارىء اذا نحن توخينا اسلوب تلـكم العصور توخيا تاما ، ولأنه لولا ذلك لما كان ثمت فرق بين هذه الرحلة وبين رحلة قديمة يضعها رحالة حقيقي في هاتيك العصور ، بيد أنا مع ذلك قد احتفظنا جهد الاستطاعة باصطلاحات العرب في اسماء الأعلام والبلدان والاقطار والممالك وما الى ذلك مـع قرنها باسمائها التي تعرف بها اليوم اما في هامش الرسائل واما في صلبها بين أقواس

٣

كل ما كان لغيرنا ونقلناه بلفظه أو بمعناه نبهنا اليه في هامش الكتاب ومن ثم يكون كل مالم ننبه الى مصدره فهو لنا معنى ولفظاً، اللهم الا ما نتمثل به من بيت مشهور أومثل سائر أو أبيات قد عرف قائلها . على أنا اذا كنا في موضع تاريخي أو وصف جغرافي قد نبهنا الى المصدر الذي اعتمدنا عليه ففي الغالب الكثير تكون العبارة لنا وانما الذي لغيرنا هو العصارة التاريخية أو الجغرافية وما اليها ، وقد نسهو عن التنبيه الى المصدر اما لانا لم نقيد ما ننقل حين النقل فلم نهتد لى موضعه بعد ذلك واما لان ما ننقله من غيرنا انما نقلناه بواسطة حافظتنا .

٤

قد نتمثل في بعض الاحايين ببيت أو أبيات تأخرت أوقات قائليها عن زمن الرحلة مثل تمثلنا بأبيات لابن خفاجه أو لابن حمديس مثلا ونحن فانا لانرى بأساً في ذلك مادامت هاتيك الأزمان متقاربة متشاكلة وحسبنا التنبيه الى ذلك في هامش الكتاب

***

« أما بعد » فيرحم الله عمرو بن بحر اذ يقول : لايزال المرء

في فسحة من عقله مالم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً - ويرحم الله القائل:
عرض بنات الصلب على الخطاب ، أهون من عرض بنات الصدر
على ذوى الألباب . فاذا كنت قد وفقت أو قاربت التوفيق فى
هذا الكتاب والا فحسبى أنى لا آلو جهداً ولا أدخر وسعاً، وأني
أخلص النية واراقب الله في كل ما اعمل، على أنه لا كمال في الارض
وانما الكمال لله وحده، واليه سبحانه الرغبة في أن يحوط كل ما أعمل
بكلاءته ، وأن يغشيه دائماً بالقبول انه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن البرقوقي

رجاء

نرجو القارىء الكريم ـ ونلح في هذا الرجاء ـ أن يتناول قلمه الآن ويصحح هذه الأغلاط المطبعية التي يراها ويرى صوابها في هذا الجدول قبل أن يمضى فى قراءة الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	٤	رواه	رواة
١٨	١٥	هاروتُ ينفثّ « في بعض النسخ »	هاروتَ ينفثُ
٢١	٨	كل صنعا « فى بعض النسخ »	كل ما صنعا
٢٥	١	ان المسلمون « فى بعض النسخ »	ان المسلمين
٣٩	٥	وفي مدافعه	وفى مدافعة
٤١	١	وماليها	وما اليها
٤٣	١٦	خمس عشر	خمس عشرة
٤٥	٣	الشأن	الشان
٤٩	٥	للبياع	المبتاع

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٠	١١	انيات	أبياتا
٥١	١٣	المحد	المجد
٥٧	٣	ومدينة مسيني	وبين مدينة مسيني
٥٧	١٦	سيفه	سيصفه
٦١	١٠	فى الجزيرة	في الجريدة
٦١	١٥	اما	أنّا
٦٣	١٢	منتزه	متنزه
٦٦	٦	ومتورقة	ومنورقة
٧١	١١	أن المركب	أن هذا المركب
٧٦	١٠	شأنا	شانا
٧٧	٣	من المغضوب عليهم	إلى المغضوب عليهم
٧٨	٧	لثلاث عشر	لثلاث عشرة
٨١	١	اظنه	ما اظنه
٨٣	٨	او تقطّع	أو تقطّع
٩٥	٤	والنبات	والبنات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٦	١٤	ابن اللبان	ابن اللبانة
١٠٩	١٣	يمتازون	يمازون
١١٠	١٤	لقاء	تلقاء
١١٧	٧	وتعقلت	وتعلقت
١١٩	١٦	تنبيه	تنبيهه
١٣٤	٥	صلوات الله عليه	صلوات الله عليه اذ يقول
١٣٧	١٢	المرءَ	المرءِ
١٥٦	٢	الطبيب	الطيب
١٦٢	٧	وينتقل من هذا العالم	وينتقل بالانسان من هذا العالم
١٦٤	١٢	ماه	ماء
١٦٦	٥	الاصطول	الأسطول
١٦٩	٢	والقواقير	والقراقير
١٦٩	٤	والشنديات	والشلنديات
١٧٣	٩	وبأبى عبلى	وبأبي علي
١٧٤	٩	ماجنه	ماجنة

الرسالة الأولى

من الإسكندرية الى المرية

كان انفصالي عن الاسكندرية للوفود إلى الأندلس بسحرة يوم من أيام سنة خمس وأربعين وثلثمائة من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، الموافقة سنة ست وخمسين وتسعمائة لميلاد السيد المسيح صلوات الله عليه، وذلك في سفينة عَدَولية (١) لأمير المؤمنين بالأندلس عبد الرحمن

المرية ويسميها الافرنج Almeria ثغر من ثغور اسبانيا واقع على البحر الابيض المتوسط . وكانت زمن هـذه الرحلة مرسي للسفن القادمة من المشرق القاصدة الي القطر الاندلسي

(١) أى ضخمة من قول طرفة بن العبد يصف السفينة

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى

قال في اللسان : قال الاصمعي العدولى من السفن منسوب الى قرية بالبحرين يقال لها عدولى ثم قال وقيل انما هي منسوبة الي موضع كان يسمى عدولاة نقول ولعل هـذا هو الاقرب

الناصر ، لم تر قطّ عيني مثلها ، وكان عبد الرحمن فيما بلغني مُولعاً بانشاء السفن والأساطيل ، فأنشأ هـذا المركب الكبير الذي لم يُعمل مثله وسير فيه أمتعة وبضائع إلى بلاد المشرق لتباع هناك وتستبدل بها بضائع من هاتيك البلاد فمر بكثير من ثغور البحر الشامي وكان آخر ما مرّ به الاسكندرية . (١)

* * *

الى الصواب ولعل عدولاة هذه هي آدولي وقد جزم بذلك وبأن السفن العدولية منسوبة الى آدولي هذه استاذنا الدكتور نالينو المحاضر كان بالجامعة المصرية قال البستاني في دائرة معارفه : تحت كلمة « آدوليس أو آدولى » هى مدينة قديمة في الحبشـة في جون من البحر الاحمر على الشاطىء الغربي وتسمي الآن زويلة وأركيكو وكانت في القرن السادس للميلاد مينـاء لاكسوم

(١) جاء في كتب التاريخ عن هذا المركب وعن ولوع الناصر بانشاء المراكب والاساطيل ما لا يكاد ينحرف عنـه كلامنا — راجع تاريخ ابي الفداء وابن الاثير وابن خلدون

ولما نزلت هـذا المركب رأيت فيه كثيراً من أهل بغداد والموصل والشام ومصر يريدون الوفود إلى الاندلس — وممن عرفت منهم عالم لغوى أديب من أهـل بغداد يعرف بأبي علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون القالى ، (١) وفقيه مصر احمد بن أبي عبد الرحمن القرشي الزهري ، (٢) وفقيه مقرىء يسمَّى أبا الحسن على بن محمد بن اسماعيل بن بشر التميمى الانطاكي ، (٣) وتاجر رحالة من أهل الموصل يعرف بابن حوقل ، (٤) وقينة اسمها فضل المدنيـة (٥) —

---

(١) دخل الاندلس ابو علي القالي سنة ٣٣٠ هجرية أيام عبد الرحمن الناصر ، وسنة ٣٣٠ وسنة ٣٤٥ قريب من قريب

(٢) دخل الاندلس هذا الفقيه المصري العظيم سنة ٣٤٣ قال ابن حيان فاكرم الناصر مثواه وكان فقيه أهل مصر

(٣) قال ابن الفرضى أدخل الانطاكي على الاندلس علما جمًا وكان اماما في القرآآت لا يتقدمه أحد فيها مات بقرطبه سنة ٣٧٧

(٤) وفد ابن حوقل على الاندلس حوال سنة ٣٦٠ ومر كذلك بصقلية (٥) جاء في نفح الطيب انه اشترى للامير عبد الرحمن صاحب الاندلس قينة اسمها فضل والظاهر أنه يعنى

وأصل هذه القينة كما أخبرتني لاحدى بنات هرون الرشيد ونشأت وتعلمت ببغداد ونهدت من هناك إلى المدينة المشرفة فازدادت ثم طبقتها في الغناء ثم اشتريت للأمير عبد الرحمن مع صاحبة لها تسمى علم المدنية وصواحب اخرى، وقد عقدت الغربة بيني وبين فضل صحبة — لأن الغريب كما قيل للغريب نسيب — فرأيت منها أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حلوة الشمائل معسولة الكلام — ذلك إلى حذقها في الغناء ولباقتها به مع الظرف الناصع، والجمال الرائع فكانت — صنع الله لها — سلوتنا في سفرنا وكانت تجلو هموم السفر [١] ومرض البحر، بما تنفثه بيننا الفينة بعد الفينة [٢] من سحر الحديث الذى يأخذ بالألباب ويرتفع له حجاب القلوب، فهو كما قال أبو حية النميرى

عبد الرحمن الاوسط لاعبد الرحمن الناصر فليلاحظ ذلك، على أنه جاء في كتب التاريخ أنه كان في هذا المركب — مركب الناصر — جوار مغنيات اشترين للناصر من المشرق

(١) أي المسافرين

(٢) الحين بعد الحين ومثلها الخطرة بعد الخطرة

فيمن يقول ·

حديث إذا لم تخش عينا كأنه
إذا ساقطته الشهد أو هو أطيب

لو انك تستشفى به بعد سكرة
من الموت كادت سكرة الموت تذهب

ولما أقلعت بنا السفينة من مُرسى الاسكندرية تحركت الريح الشرقية نسيما فاتراً عليلا ثم غشّى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه، فماد كأنه صرح ممرد من قوارير، فبقينا لاعبين على صفحة ماء تخاله العين، سبيكة لجين، كأنا نجول بين سماءين، فكان لذلك منظر هو قيد النواظر وغُلّ[1] الألباب وشرك النفوس ـ تجلى لنا فيه جمال الكون وصانعه، فكنت ترى السماء صافية الأديم، زاهرة النجوم، وكوكب الزهرة مقبلا من ناحية المشرق يحفه الجمال و الجلال، فلولا التُقى لقلت جلت قدرته، وترى البحر كأنه مرآة مصقولة تنظر السماء فيها وجهها، فكأنما

(١) الغل القيد

الماء سماء ، وكأن السماء ماء ، وترى النوتية مجدين فى التجذيف على حال لو هممت بتشبيهها بشىء حسن لاضطرك حسنها إلى رده إليها .

مجاذف كالحيات مدت رؤسها
على وجل فى المـاء كي تروى الظما
كما أسرعت عدّا أنامل حاسب
بقبض وبسط يسبق العين والفما[١]

وفيما بين ذلك تسمع فضلا تغنى في قبتها مواليا بغدادية ساحرة و بين يديها مزهر تقلدته أطرافها .

تميت به ألبابنـا وقلوبنـا
مراراً وتحييهن بعـد همود
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى
صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله
كأنا من الفردوس تحت خلود

---

(١) البيتان لابى عمرو يزيد بن أبي خالد اللخمي الاشبيلى الاندلسى

ومضى على ذلك ثلاثة أيام بلياليها كنا من أوقاتها في بُلهنية [1] من العيش ، وغفلة عن أعين الدهر ، ووصال أخضر ، ونعمى لايشوبها بؤس ولا كدر ، فلما كان اليوم الرابع — ولا كان — هبت علينا ريح عاصف رمتنا بها الأقدار من حيث لا ندرى ، فأرغى البحر وازبد ، وأبرق وأرعد ، وتلاطمت الأمواج ، واهتاجت ايما اهتياج ، وصار بها عمرك الله مثل الجنون ، وتراءت في صورها المنون

وقد فغر الحِمام هناك فاه
وأتلع جيده الأجل المتاح [2]

فانقلب يسرنا عسراً ، وأدال الله من الحلو مراً ، وعظم الخطب ، وعم الكرب ، ونحن فى ذلك قعود ، كدود على عود ، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود ، أغوار ولا نجود ،

(١) رخاء لايشوبه سوء ـ من البلاهة

(٢) لابن خفاجه الاندلسى ـ فغر فتح والحمام الموت وأتلع مد والمتاح المقدر

إلا السماء ، والماء ، وذلك السفين ، ومن فى قبر جوفه دفين

البحر صعب المرام جدا لا جعلت حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه (١)

ولبثنا على هذه الحال من ظهر اليوم الرابع الى سحره وبعد ذلك فترت الحال بعض الفتور ، ثم جاءت ريح رُخاء زجت السفينة إلى بر جزيرة اقريطش «كريد» أهنأ تزجية وأخذنا نسير فى محاذاتها ، فما كان الا كلا ولا حتى وصلنا إلى مدينة الخندق (٢) إحدى مدنها ومرافئها العظيمة ، فأرسينا بهـا ريثما نشتري منها ما يعوزنا من الخبز واللحم والماء والفاكهة .

أقريطش

وهذه الجزيرة من جزر بحر المغرب الكبيرة ، فيها مدن وقرى كثيرة ، يقابلها من بر أفريقيا لوبيا ، وجميع سكانها الآن مسلمون ، وأميرها يسمي عبـد العزيز بن

---

(١) المقرى صاحب نفح الطيب (٢) كنديه Candia

شعيب من ولد أبي حفص البلوطي الاندلسى [١] وذلك فيما علمت أن الحكم بن هشام أمير الاندلس كان قد أمعن صدر ولايته فى اللذات ، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيي بن يحيي الليثي صاحب مالك وأحد رواه الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، فنقموا عليه وثاروا به وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة ـ محلة متصلة بقصره ـ فقاتلهم الحكم واستلحمهم ، وهدم ديارهم ومساجدهم فلحقوا بفاس من أرض العُدوة [٢] وبالاسكندرية ، وبعد أن أقاموا فى الاسكندرية حينا من الدهر تلاحى رجل منهم مع جزار من سوقتها فنادوا بالثار واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم وامتنعوا بهـا وولوا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطي ـ ويعرف بأبى الفيض من أهل قرية مطروح من عمـل فحص البلوط المجاور لقرطبة ـ فقام برآستهم . وكان على مصر يومئذ عبد الله بن طاهر من جهة المأمون ، فزحف اليهم وحصرهم بالاسكندرية

---

(١) كل ما ذكر عن كريد تاريخي حقيقي (٢) مراكش

فاستأمنوا له فأمنهم وبعثهم إلى هذه الجزيرة ـ أقريطش ـ فعمروها وأضاؤها بنور الاسلام وشيدوا بها المعاقل والحصون والمدن العظيمة مثل الخندق التى اشترينا منها خبزنا ولحمنا ، وبهرنا ما رأينا فيها من حضارة العرب وعز الاسلام ، ولا يزال أميرها الى اليوم ـ وهو سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ـ من ولد أبي حفص البلوطى ، وهو الامير عبد العزيز بن شعيب ، أدام الله عليه ملكه ، وأبعد عنه كيد الاعداء

* * *

ولما أقلعنا عن بر جزيرة أقريطش أسعدت الريح ، وأصحت السماء ، ونام عنا البحر ، وأخذت السفينة تشق اليم ، شق الجلم [١] وأخذنا فى سمت جزيرة صقلية (Sicily) وما زلنا حتى قطعنا سبعمائة ميل فى مدى أربعة أيام بلياليها ولما قاربنا صقليه وصرنا منها أدنى ذي ظَلَم [٢] أخذت أعيننا

---

(١) المقص (٢) أقرب شيء اليها تقول انه لاول ذى ظلم لقيته اذا كان اول شيء سد بصرك بليل أو نهار ومثله لقيته

أشباحا كالأعلام تسير على وجه الماء تنضم إلى بعضها تارة وتنصاع كسرب القطا أخرى ، فتساءلنا ، فقيل لنا ان هذا أسطول المعز لدين الله أبي تميم معد العبيدى يغـدو ويروح بين صقليه وبين قِلّوريه (Calabria) من بر الارض الكبيرة « أوروبا » فاغتبط بهذا المنظر تاجر مغربي أديب من أهل المهدية ، نزل معنا من أفريطاش بنية الوفود إلى صقليـة ، وأخذت منه هزة الطرب حين رأى أسطول بلده ، ورفع عقيرته ـ وقد أنافت برأسه النُّعَـرة — نعرة العصبية — قائلا : لله أبو القاسم محمد بن هانىء الاندلسي شاعر سيدنا المعز لكأنه يرى مانرى الآن حين يقول ، فى هذا الاسطول

اما والجوارى المنشآت (١) التى سرت
لقد ظاهرتها (٢) عدة (٣) وعديد (٤)

أول وهلة وأول صوك وبوك

(١) السفن (٢) عاونتها . (٣) عددوآلات (٤) اناس متعددة كثيرة ـ جنود ـ

قباب (١) كما ترخى القباب على المها (٢)

ولكن من ضمت عليه أسود

عليها غمام مكفهر صبيره (٣)

له بارقات جمة ورعود

أنافت بها أعلامها (٤) وسما لها

بناء على غير العراء مشيد

من الراسيات الشم لولا انتقالها

فمنها قنان شمخ وريود (٥)

من الطير الا أنهن جوارح

فليس لها الا النفوس مصيد

---

(١) جمع قبة (٢) جمع مهاة وهى في الاصل البلورة التى تبص الشدة بياضها أو الدرة ثم اطلقت على بقرة الوحش على التشبيه لبياضها ثم هم يشبهون المرأة بالمهاة في البياض يعنون البلورة أو الدرة واذا شبهت بها في العينين فانما يعنى بها البقرة يقول كما ترخى القباب على النساء (٣) الصبير السحاب الابيض

(٤) راياتها (٥) القنان جمع قنة وهى أعلى الجبل والريود جمع ريد بفتح الراء الحرف الناتىء من الجبل

من القادحات النار تضرم للصلى
فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج
كما شب من نار الجحيم وقود
فأفواههن الحاميات صواعق
وأنفاسهن الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار[١] كأنها
دماء تلقتها ملاحف سود
تعانق موج البحر حتى كأنه
سليط له فيه الذبال عتيد[٢]
ترى الماء فيها وهو قان عبابه
كما باشرت ردع الخلوق جلود[٣]

---

(١) الغمار جمع غمر الماء الكثير
(٢) السليط الزيت والذبال الفتائل وعتيد معد حاضر
(٣) الخلوق الزعفران والردع اللطخ بالزعفران وقان اي احمر والمعنى ظاهر

فليس لهـا إلا الرياح أعنة
وليس لها إلا الحباب كديد [١]
وغيرُ المَذاكي نَجرها [٢] غيرانها
مسومة تحت الفوارس قود
رحيبة مد الباع وهي نتيجة
بغيرشوى [٣] عذراء وهي ولود [٤]
تكبرن عن نقع [٥] يثار كأنها
موال [٦] وجرد الصافنات عبيد

---

(١) الكديد تراب حلبة الخيل (٢) يقول ليست من الخيل لان المذاكي الخيل والنجر الاصل (٣) يقول انها رحيبة مد الباع مع انها من غير قوائم فالشوى قوائم الفرس

(٤) عذراء لانها لم تركب قبل وولود لانها تحمل ناساً فكأن الجنود فيها أولادها وهذا من قول مسلم بن الوليد

كشفت اهاويل الدجى عن مهولة بجارية محمولة حامل بكر

(٥) غبار

(٦) المولى السيد

لها من شفوف العبقرى ملابس[١]
مفوفة[٢] فيها النضار جسيد[٣]
كما اشتملت فوق الارائك خرد[٤]
أو التفعت فوق المنابر صيد[٥]
لبوس تكف الموج وهو غطامط[٦]
وتدرأ بأس اليم وهو شديد

---

(١) الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق والعبقر موضع تزعم العرب انه في أرض الجن قالوا وتوشى فيه البسط وغيرها ثم نسبوا اليه كل شيء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته ويقال ثياب عبقرية من هذا

(٢) مفوفة فيها خيوط بيض

(٣) النضار الذهب والجسيد الدم

(٤) جمع خريدة وهى من النساء البكر التى لم تمس او الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة

(٥) ملوك

(٦) اي عظيم ـ كثير الماء

فمنه دروع فوقها وجواشن [١]
ومنها خفاتين [٢] لها وبرود

وإنا لفي ذلك إذ رأينا قلورية من بر الارض الكبيرة عن يميننا ، وبر جزيرة صقلية عن يسارنا ، ثم دخلنا المجاز الذي بينهما ، فرأينا بحراً صعباً ينصب انصباب العرم ، ويغلي غليان المرجل ، لشدة انحصاره وانضغاطه ، فاستمر مركبنا في سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقاً عنيفاً ، فلما شارفنا مدينة ريو (Reggio) وقد كان الليل مظلماً ربوض النواحي ضربت في وجوهنا ريح انكصتنا على الاعقاب . وحالت بين الابصار والارتقاب ، وتتابعت علينا عوارض ديم صرنا منها ومن الليل والبحر في ثلاث ظلم ، وعباب البحر تتوالى صدماته ، وتطفر الالباب رجفاته ، فقطعنا هذه الليلة البهماء في مقاساة اهوال تجعل الولدان شيبا [٣] ثم تداركنا صنع الله مع السحر ، ففترت الريح ، ولان متن البحر وجاءت ريح رخاء زجت المركب تزجية حسنة الى مدينة ريو

(١) الجواش القمصان (٢) نوع من الثياب (٣) ابن جبير

وكان ذلك في فجر اليوم التاسع ليوم انفصالنا عن الاسكندرية. وما أرسى المركب على هـذه المدينة حتى أقلع عنها كيلا يحسه اسطول العبيديين ويثأر منه. وذلك فيما علمت أن المركب الأندلسي كان قد تحرش وهو ذاهب إلى بلاد المشرق بمركب للمعز فيه كتب ورسائل ـ فقطع عليه المركب الأندلسي وأخذه بما فيه (١) فتملكنا الذعر لذلك الخبر، ونزت قلوبنا خوفا على أنفسنا ـ ومن ثم اعتزمت أن أنزل من هذا المركب على أقرب بلد يرسى عليه، وكذلك نزلت منه عند إرسائه على هـذه المدينة وحمدت الله الذى لا يحمد على المحبوب والمكروه سواه.

* * *

بيد أنى ما انفصلت عن المركب حتى انفصل عنى قلبى وسار مع من فيه وأصبحت على حد قول القائل :

---

(١) ابن خلدون

هواى مع الركب اليمانين مصعد
جنيب وجثمانى بمكة موثق

ذاك انفصالى عن فضل المدنية التي هي مَراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب وأنس الوحيد وزاد الراكب ، ولا بدع فهناك الجمال الرائع والظرف البارع والشباب البض ، والأدب الغض ، ورقة الحاشية، وخفة الناحية، وعذوبة المعاشرة ،وحلاوة المحاضرة

وحديثها السحر الحلال لو انه
لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت
ود المحدث انها لم توجز
شرك العقول ونزهة ما مثلها
للمطمئن وعقلة المستوفز

* * *

فكأن لفظ حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروتَ ينفث فيه سحرا

حوراء ان نظرت اليـ ـك سقتك بالعينين خمرا
تنسى الغويّ معاده وتـكون للحكماء ذكرا

* * *

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي
متأخر عنـه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة
حبا لذكرك فليلمنى اللوم

* * *

وما أنس من الأشياء لا أنس صوتها العذب الذي كأنه مجاج النحل، وغناءها الحبيب إلى النفوس حتى كأنها خلقت من كل قلب ، فهي تغنى لكلٍّ ما أحب، ولقد كان يخيل إلينا وهي تغنينا في المركب أنا في الفردوس يطربنا نبي الله داود .

إذا هي غنت أبهت الناس حسنُها
وأطرق اجلالا لها كل حاذق

* * *

غنت فلم تبق فيَّ جارحة الا تمنت بأنها أذن

* * *

تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الاوصال وهي تجيد
مد في شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحيي مستلذ بسيطه والنشيد
في هوى مثلها يخف حليم راجح حلمه ويغوى رشيد
خلقت فتنة غناء وحسنا مالها فيهما جميعاً نديد

* * *

وأين لا أين مزهرها الذي كأن صوته صرير باب الجنة والذى كانت اذا تناولته لتضرب على اوتاره فكأنما تنتظم قلوبنا لتضرب على أوتارها . وهكذا هكذا فليكن الغناء وسماعه ؛ وهل خلقت الاغانى . لعمر الله الا للغوانى !
وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله ، وبين أن تسمعه من فم تشتهي أن تشيح بوجهك عنه ! وأيهما أملح وأجمل ـ أن يغنيك خل ملتف اللحية وشيخ منخلع الاسنان

متغضن الوجه ـ أو تغنيك غانية كطاقة نرجس أو آس ، وكأنها حورية أبقت من رضوان ، خازن الجنان . فآه من جمالها وآه من حديثها وآه من غنائها وآه من مزهرها ، ولكن نزلت ريو وفارقتني فضل ، ولله الامر من بعد ومن قبل

ياوحشتا للغريب فى البلد النـ	ـازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا	بالعيش من بعده ولا انتفعا
يقول فى نأيه وغربته	عدل من الله كل ما صنعا

* * *

وهذه ريو هى مدينة عظيمة من مدائن جزيرة قلورية من بر الارض الكبيرة ، واقعة على مجاز مسينى ، بينها وبين مسينى نحو من عشرة أميال ، وبها مسجد كبير بناه فى وسطها ابو الغنائم الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبي والى صقلية كان من قبل المنصور العبيدى بعد أن اكتسح بلاد قلورية جميعاً وتغلغل فى أحشائها وشيد بها المعاقل والحصون وأرغم انوف أهليها من الروم ، وذلك فيما بلغني أن

الانبرور [1] صاحب القسطنطينية كان قد أرسل سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة بطريقا فى البحر فى جيش عرمرم الى جزيرة صقلية فارسل الحسن الى المنصور العبيدى يعرفه الحال فارسل اليه اسطولا فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل سوى البحرية ، وجمع الحسن اليهم جمعاً كثيراً وسار من بلرم قصبة صقلية فى البر والبحر فوصل الى مسينى وعبرت العساكر الاسلاميـة الى ريو هذه وبث الحسن سراياه فى أرض قلورية ونزل هو على بلد يسمى جراجة وحاصرها أشـد حصار حتى أشرف أهلوها على الهلاك من شدة العطش ، وانه لفي ذلك اذ وصله الخبر أن الروم قد زحفوا اليه فصالح أهل جراجة على مال أخذه منهم وسار الى لقاء الروم ففروا من غير حرب الى مدينة تدعى بارة ونزل الحسن على قلعة تعرف بقلعة قسانة وبث سراياه الى قلورية وأقام عليها شهراً فسألوه الصلح فصالحهم على مال أخذه منهم ودخل الشتاء فرجع الجيش الى مسينى

---

(١) الامبراطور

وشتي الاسطول بها ، فأرسل اليه المنصور يأمره بالرجوع الى قلورية فسار الحسن وعبر المجاز الى جراجة فالتقى المسلمون والروم يوم عرفة سنة اربعين وثلاثمائة فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فانهزمت الروم وركب المسلمون اكتافهم الى الليل وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم ثم دخلت سنة احدي واربعين فقصد الحسن جراجة فحصرها فأرسل اليه الانبرور يطلب منه الهدنة فهادنه وعاد الحسن الى ريو وبني بها مسجد كبيراً في وسطها وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته واقامة الصلاة فيه والأذان وان لا يدخله نصرانى ومن دخله من الاسارى المسلمين فهو آمن سواء كان مرتداً أو مقيما على دينه وان أخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وافريقية فوفى الروم بهذه الشروط كلها ذلة وصغارا [1]

* * *

أما قلورية فهي جزيرة كبيرة داخلة في البحر مستطيلة

---

(١) ابن الاثير

شرقى جزيرة صقلية وأهلها افرنج ولها بلاد كثيرة وارض واسعة ينسب اليها فيما أحسب ابو العباس القلّورى حدث عنه ابو داود السجستانى فى سننه[١] وقد غزى المسلمون ازمان بنى الاغلب هذه الجزيرة وارضَ انكبردة « لومبارديه » وامعنوا فيها واستولوا على مدينة بارة[٢] الواقعة على جون البنادقين[٣] أيام قارله[٤] انبرور الفرنج ، و كذلك استولوا على مدينة طارنت من ارض أنْكَبُرْدَة ومدينة ملف وقلعة قسانه وبلدانا اخرى، وقرعوا أبواب رومة العظيمة ، وغنموا منها غنائم لا يستقام لها قيمة[٥] وضربوا الجزية على البابا عظيم النصرانية — وذلك عدا أنهم فتحوا مدينة جنوة الواقعة على خليج الجنويين واكثر جزائر هذا البحر الرومى —

---

(١) معجم البلدان (٢) جاء في دائرة معارف البستانى مايأتى : هي مدينة في ايطاليا على شبه جزيرة صغيرة فى بحر ادرياتيك : ـ الى أن قال وفى عهد شارلمان كانت بارة اكبر حصن للعرب على هذا البحر (٣) بحر الادرياتيك (٤) هو ؟؟ شارلمان وانبرور اى امبراطور (٥) لا تقدر قيمتها نفاسة

وجملة القول أن المسلمين أثخنوا فى بلاد الارض الكبيرة وألحوا فى قهرها ، وغلبوا أممها على امرها ، وضربت اساطيلهم بجزائر هذا البحر ضراء الضياغم بفرائسها ، وأديل لهم بها من املاكها[1] واناسها ، وذلك كله بما قوى عزائمهم من الحق واليقين ، والف بين قلوبهم من وشائج هذا الدين وبما ألجأتهم اليه الحال . وامتلاكهم لسيف[2] هذا البحر الجم الاهوال . مما احكمهم وأشغفهم بحبه . وجعل لهم دربة بركوبه وحربه . واغراهم بانشاء الاساطيل فيه ينقضون بها على جزائره التي يخطئها العد والاحصاء وعلى عُدوته الشمالية[3] وهي أمنع من العقاب فى أجواز الفضاء . وعلى أهلها من امم فرنجة وهى أعز وأبعد منالا . وان كان للمسلمين

شرف ينطح السماك بروقيه وعز يقلقل الاجبالا

* * *

---

(١) ملوكها (٢) السيف ساحل البحر والجمع اسياف

(٣) سواحل اوروبا الجنوبية

وهم البحر ذو الغوارب الا انه صار عند بحرك آلا

* * *

وقد كان المسلمون فى الصدر الاول يتحاشون ركوب البحر حتى كان من عمر بن الخطاب لما كتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر يستوصفه البحر فكتب اليه عمرو فيما كتب : ان البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود : — أن اوعز بمنع المسلمين من ركوبه فتحرجوا منه وعبروا على ذلك حينا من الدهر . حتى اذا كان لعهد معاوية اذن في ركوب اثباجه . والجهاد على متون امواجه وذلك لان العرب لبداوتهم لم يكن لهم مران عليه وحذق بركوبه بينما الروم والفرنجة لممارستهم احواله ومرباهم فى التقلب على اعواده للحرب والاتجار مرنوا عليه واحكموا الدربة بثقافته والحرب فى أساطيله حتى كان من ذلك أن أغار الروم من العدوة الشمالية على أفريقية من العدوة الجنوبية والقوط على المغرب منها — اجازوا فى الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم

امرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنه ، وطنجه وكان صاحب قرطاجنه من قبلهم يحارب صاحب رومه ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والمدد — فكان ذلك ديدن أهل هذا البحر الساكنين حفافيه فى القديم والحديث فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم الاعاجم خولا لهم وتحت أيديهم ومت اليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية امما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، شرهوا الى الجهاد فيه فأنشأوا السفن والاساطيل وشحنوها بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من هذه الامم الحمراء ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان اقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقيـة والمغرب والاندلس ، فاوعز عبد الملك بن مروان الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله بن الاغلب كما سيمر بك ، ثم تسلسل الامر حتى

بلغ شأن الاساطيل عند العبيديين أصحاب افريقية وعند بنى امية بالأندلس مبلغاً غلبوا معه على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه وصار لا قبل لامم النصرانية بأساطيلهم به وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل منه مثل اقريطش وصقلية وقبرص ومالطة وقوصرة وسردانية وميورقة ومنورقة ويابسة (١) كما سيمر بك ان شاء الله .

* * *

ولقد كان من أجل عناية العبيديين وبنى أمية بشأن الأساطيل وتفوقهم فى ذلك على سائر الممالك الاسلامية للسبب الذى قدمناه وهو وجودهم على ضفاف هذا البحر أن انبعثت قرائح الشعراء فى الاندلس وأفريقية بالقول فى وصف الاساطيل. واختص أدباء هذين القطرين بهذا الباب من الوصف حتى لا تكاد تجد لشعراء المشرق يداً فيه — ومن أحسن ما سمعناه لشعراء المغرب فى الأسطول دالية أبى القاسم

---

(١) بن خلدون

محمد بن هانيء الشاعر الاندلسي المنقطع الآن للمعز العبيدي وقد تقدمت في صدر هذه الرسالة . وبائية علي بن محمد الايادي التونسي شاعر القائم العبيدى وهى دون الدالية. وفيها يقول

شرجوا جوانبه مجاذف أتعبت

شأو الريح لها ولما تتعب

تنصاع من كثب كما نفر القطا

طوراً وتجتمع اجتماع الربرب

والبحر يجمع بينها فكأنه

ليل يقرب عقرباً من عقرب

وعلى كواكبها أسود خلافة

تختال في عدد السلاح المذهب

فكأنما البحر استعار بزيهم

ثوب الجمال من الربيع المعجب

ومنها في وصف الشراع

وله جناح يستعار يطيره

طوع الرياح كراحة المتطرب

يعلو بها حدب العباب مطارة

في كل لج زاخر مغلوب

يسمو بأجرد فى الهواء متوج

عريان منسوج الذؤابة شوذب(١)

يتنزل الملاح منه ذؤابة

لو رام يركبها القطا لم يركب

فكأنما رام استراقة مقعد

للسمع الا أنه لم يشهب

وكأنما جن ابن داود هم

ركبوا جوانبها بأعنف مركب

سجروا جواحم نارها فتقاذفوا

منها بألسن مارج متلهب

من كل مسجور الحريق اذا انبرى

من سجنه انصلت انصلات الكوكب

---

(١) طويل

عريان يقذفه الدخان كأنه

صبح يكر على الظلام الغيهب

الى أن قال

ولواحق مثـل الأهلة جنح

لحق المطالب فائتات المهرب

يذهبن فيما بينهن لطافة

ويجئن فعل الطائر المتقلب .

كتضانض الحيات رحن لواعبا

حتى يقعن ببرك ماء الميزب

«وبعد» فان لشعراء المغرب من بارع القصيد فى هذا الباب مالا يحصى كثرة ، وما ينم عن عظمة الاساطيل عند الدول الاسلامية وبلوغها لديهم الشأو الذى لا يلحق حتى وصل المسلمون إلى ما وصلوا اليه من الصولة واتساع الملك وضخامة السلطان .

* * *

ومن هنا تعرف مكان الاساطيل من الدول ولا سيما

دول البحار مثل الدول الاسلامية لعهدنا ؛ وان الاسطول هو سياج الدولة وعمادها، وبه عزها وعليه بعد الله اعتمادها ؛ بل هو درعها المسردة التي تتقى بها سهام الاعداء وتحول وسلاحها الذى تطول به فى البحر وتصول . وجناحها الذى تطير به فى سماء المجد وتجول . وإن دولة لم تعن العناية كلها بالاساطيل ؛ وترسلها على متن هذا البحر طيراً ابابيل ؛ هي لعمرى دولة مقصوصة الجناح . وكالأعزل يقتحم الهيجاء بغير سلاح .

وما خير كف أمسك الغل اختها
وما خير سيف لم يؤيد بقائم

* * *

ولما نزلت على ربوة أخذت سمتى إلى مسجدها الجامع لأصلي فيه صلاة الصبح وأثلج صدري ببرد التقى وشعائر الاسلام . وأجلو بعضا من وعثاء السفر الزوّ . وما زلت حتى أخذت عيني بناء شاهقا تعتمد مآذنته بالعماء كأنما تبث حديثا إلى ملائكة الله فى السماء . أو كأنها تعلن برفعة رفعة

الاسلام ، وعزة أهله على عبدة الطاغوت والاصنام، وكذلك رأيت كل من مر بهذا المسجد من الروم أغضى من مهابته ذلة وصغارا . وإجلالا لدين الله وا كبارا ، مما ألقاه فى قلوبهم من الرعب واختشاء المسلمين أبو الغنائم الحسن بن على رحمه الله .

***

ولما توسطت باحة المسجد رأيت صفوف المصلين من الرجال وأمامهم فى المحراب . كسطور أمامها عنوان الكتاب . وخلف الرجال حاجز من خشب يليه صفوف المصليات من النسوان . كما تكون هوامش الصفحة يفصلها من سائرها أحمر من المداد قان . فانضممت إلى صفوف المصلين، وصليت معهم صلاة الصبح. ولما أن سلم الامام وكان قائداً من قواد العرب فى هذه البلاد — وكذلك كان أئمة المسلمين فى الحروب والسياسات . أئمة لهم فى التقى والصلوات ، قام واتكأ على سيفه وقال [1] :

---

(١) هذه الخطبة من وضعنا ، وانما نقصد تصوير ذلك العصر من جميع جوانبه

* * *

أيها العرب أنتم الآن بين ظهرانَي عدوٍ يلنْدَد [١] يتجرع منكم الغُصص. ويتحين بكم الفرص. ويود لو يبدلنكم الله ضعفاً من قوة. وضنا بنفوسكم من فتوة [٢]. وهزيمة من ظفر، واستحالة لصفوكم إلى كدر. فيثب بكم وثبة الغضنفر نال منه الجوع والسُّعار [٣]. ويستعل بكم كما يستعل هذا البركان فيرمى بحممه والشرار. فاذا فترت منكم الهمم. ووهت العزائم، وأغمدتم السيوف في الأجفان. وقعدتم عن نصر الله في كل آونة وكل مكان. وسكنتم إلى الترف والنعيم وجرتم معاذ الله عن النهج القويم. ودب اليكم ما قد دب إلى هذه الامم الحمراء. من الحسد والبغضاء. فانكم صائرون لا محالة إلى ما قد صاروا اليه. وإذ ذاك يصيركم الله بعد نصركم فَلاًّ [٤] ويديل من عزكم ذُلاّ. ومن كثركم قلاّ. وتنضون بعدُ على هذا العالم كَلاًّ [٥].

---

(١) ألد شديد الخصومة (٢) بذل وكرم والمراد كما هو ظاهر بذل النفس (٣) شدة العطش (٤) منهزمين (٥) عالة وثقلا

* * *

وبعد أن فرغ من كلامه خرج وخرج معه رجاله وعلوا متون الجياد وذهبوا إلى حيث يعلون كلمة الدين، ويذيعون التقي والحق واليقين. وينسفون دعائم الشرك والالحاد. ويفكون اغلال الظلم من رقاب العباد.

مستمسكين بحق قائمين به   اذا تلون أهل الجور ألوانا

ولما أن قضيت صلاتى خرجت من المسجد وقصدت إلى مرسى السفين فوجدت ثمت مركباً يريد أن يعبر إلى جزيرة صقلية فنزلته ثم أقلع وعبر بنا إلى مدينـة مسينى إحدى مدائن هذه الجزيرة، وأرسي فيها على مرسى عجيب يأخذ بالألباب، وذلك أن أكبر ما يكون من السفن يرسى من الشاطيء بحيث يتناول ما فيها من البر بالأيدى (١)

* * *

وقبل أن نسترسل في القول على مدينة مسينى وسائر البلدان التى مررت بها فى هذه الجزيرة العجيبة نذكر لك شيئاً من تقويمها وتاريخها حتى تكون على بينة من أمرها ان شاء الله.

---

(١) نزهة المشتاق

صقلية

هى جزيرة فى البحر كبيرة على شكل مثلث متساوى الساقين ، زاويته الحادة من غربى الجزيرة ، بينها وبين ريو وبلاد قلورية من بر الأرض الكبيرة مجاز مسينى حيث يتراوح البحر بين ستة أميال وعشرة أميال . وبين ذنبها الغربى وبين تونس نيف وستون ميلا ، وزاويتها الجنوبية تقابل برطرابلس من أفريقية ، وبالقرب من زاويتها الشمالية جزيرة صغيرة فيها بركان النار الذى لا يعلم فى العالم أشنع منظرا منه : وهذا بركان اسم لجبلين أحدهما هـذا والثانى فى صقلية نفسها فى أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارة والدخان أخرى ، ومن ثم كانت كثيرة الزلازل بحيث يكثر تهدم أبنيتها منها ، وسيمر بك قريباً قول ضافٍ فى هذا المعنى .

* * *

وقد كانت هذه الجزيرة قبل الفتح خاملة قليلة العمارة

وكانت من عمالات الروم وأمرها راجع إلى الانبرور صاحب قسطنطينية، وكان عليها وال من قبل هذا الانبرور يسمى قسطنطين. وكانت أفريقية (١)، تحت ولاية زيادة الله بن الأغلب، كان واليا عليها من قبل المأمون بن هرون الرشيد فلما كانت سنة ثنتي عشرة ومائتين استعمل الانبرور على الاسطول قائدا روميا يسمى فيمي، وكان حازماً شجاعاً، فغزا سواحل أفريقية وعبث فيها وبقى هناك مدة وبعد ذلك كتب الانبرور الى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي وتعذيبه. فنمى الخبر الى فيمي فانتقض وتعصب له أصحابه وسار الى مدينة سرقوسة احدى مدائن صقلية فملكها فسار اليه قسطنطين فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين الى مدينة قطانية فسير اليه فيمي جيشاً فقبضوا عليه وقتلوه واستولى فيمي على صقلية وخوطب بالملك وولى على ناحية من الجزيرة رجلا اسمه بلاطة فاتفق بلاطة هو وابن عم له يسمى ميخائيل كان واليا على بلرم وجمعا عسكرا كثيراً

---

(١) تونس والجزائر وطرابلس الغرب

وقاتلا فيمي فانهزم فيمي وركب فى أسطوله الى أفريقيـة مستنجدا بزيادة الله بن الأغلب فسير معه أسطولاً عظيماً فى تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل واستعمل عليهم أسد ابن الفرات — قاضي القيروان ومن أصحابه مالك رضى الله عنه وهو مصنف الأسدية فى الفقه على مذهب مالك — وأقلعو من سوسة (١) فوسلوا الى مدينة مأزر من صقلية وساروا الى بلاطة الذى قاتل فيمى فهزموه والرومَ الذين معه وغنموا أموالهم وهرب بلاطة الى قلورية فقتل واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة وجرت وقائع كثيرة بين الروم والمسلمين امتدت سنين طوالا وانتهت باستيلاء المسلمين على جميع جزيرة صقلية — وبقيت صقلية بيد بنى الاغلب يتناوبهـا عمالهم الى أن أدال الله منهم للعبيديين ودانت لعبيد الله المهدى افريقية وما اليها فأخذوا يبعثون

(١) هي الآن من أعمال ولاية تونس واقعة على البحر الابيض المتوسط على مسافة ١١٠ كيلومترا من تونس الى الجنوب الشرقي

عمالهم عليها الى أن كانت فتنة أبي يزيد وشغل أبي القاسم القائم والمنصور العبيدى من بعده بأمره — فلما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على صقلية لأبي الغنائم الحسن ابن أبي الحسين بن علي الكلبي—وكان له في الدولة محل كبير وفي مدافعه أبي يزيد (١) غناء عظيم—فمهد الامور للعبيديين

---

(١) ابو يزيد الخارجي هو رجل من زناته واسم والده كيداد من مدينة توزر من بلاد قسطيلية بافريقيه فولد له ابو يزيد بتوزر من جارية سوداء ونشأ ابو يزيد في توزر وتعلم القرآن وسار الى تاهرت وصار على مذهب النكارية وهو تكفير أهل الملة واستباحة أموالهم ودمائهم والخروج على السلطان ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة ست عشر وثلثمائة ودعا أهل تلك البلاد فأطاعوه وكثر جمعه في أيام القائم بن المهدى فحصر قسطيليه ثم فتح تبسه ثم سبيبة وصلب عاملها ثم فتح الاريس فأخرج القائم جيوشاً لحفظ رقاده والقيروان فهزمهم ابو يزيد واستولى على تونس ثم على القيروان ورقاده ثم سار ابو يزيد الى القائم فجهز اليه القائم جيشاً فجري بينهم قتال كثير وأخيراً انهزمت جيوش القائم فسار ابو يزيد وحصر القائم بالمهدية

وضايقها وغلا بها السعر وعدم القوت ولم يزل حتى رحل عنها ورجع الى القيروان وفى أثناء ذلك توفى القائم وملك ابنه المنصور فجهز المنصور العساكر وسار بنفسه الي القيروان واستعادها من أبي يزيد وانهزمت عساكر الخارجي وسار المنصور في أثره فأدركه على مدينة باغاية فهرب الخارجي من موضع الي آخر حتي وصل طبنة وهرب حتي وصل الي جبل للبربر يسمي برزال والمنصور في أثره واشتد على عسكر المنصور الحال فرجع المنصور الي بلاد صنهاجه وبلغ الي موضع يسمي قرية عمره واتصل به هناك الامير زيرى الصنهاجي وهو جد ملوك بنى باديس فاكرمه المنصور غاية الاكرام ثم رحل الي المسيلة وكان قد اجتمع الى أبي يزيد جمع من البربر وسبق المنصور الي المسيلة فلما قدم المنصور اليها هرب عنها ابو يزيد الي جهة بلاد السودان فاقتفى المنصور أثره حتي قابله فاقتتلوا فانهزم ابو يزيد واخذت أثقاله فالتجأ الي قلعة كتامة وهي منيعة فحاصرها المنصور وداوم الزحف عليها الي أن ملكها عنوة فهرب ابو يزيد من القلعة من مكان وعر فسقط منه فأخذوه وحملوه الي المنصور فسجد المنصور شكراً لله وكثر تكبير الناس وتهليلهم وبقى ابو يزيد فى الاسر مجروحا فمات في المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فسلخوا جلده وحشوه تبنا وكتب المنصور الي سائر البلاد بالفتح وبقتل ابى

وغزا بلاد قلوريه وأقام واليا على صقلية وماليها الى أن استأثر الله بالمنصور وقام بالأمر من بعده ولده المعز لدين الله ابو تميم معد فسار الحسن اليه بافريقية سنة احدى واربعين واستخلف على ماوراءه ابنه ابا الحسين احمد، ولا يزال هذا الامير أيده الله واليًا على صقلية وما اليها الى اليوم وهو سنة خمس واربعين وثلاثمائة ومقامه ببلرم حضرة هذه الجزيرة .

* * *

وهذه الجزيرة جِدُّ خصيبةٍ [1] وكلأها لا ينقطع في صيف ولا شتاء، وهي كثيرة الأمواه والعيون والفواكه والارزاق [2] وجبالها كلها مثمرة بالتفاح والشاه بلوط [3] والبندق والاجاص . ومنها يجلب الجوز والقسطل الى بلاد افريقيـة ويجلب منها كثير من القطن — وفيها

يزيد وعاد الي المهدية، وكان ابو يزيد قصيراً اعرج قبيح الصورة، يلبس جبة صوف قصيرة . اه ملخصا من ابن خلدون

(١) خصيبة جدا (٢) كتاب الجغرافية لابى عبدالله محمد بن أبي بكر الزهرى (٣) هو المعروف في مصر بأبي فروة

معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق [١] وهي مستبحرة العمران كثيرة المدن والقرى والضياع، فقد أخبرني ثبت ثقة أن بهذه الجزيرة مائة وثلاثين بلدا [٢] بين مدينة وقلعة عدا ما فيها من الضياع والمنازل والبقاع — وكلها مسكونة بالمسلمين، ملأى بالمساجد والفنادق والحمامات. وفيها من العلماء والفلاسفة والادباء، ما لا يكاد يدركه العد والاحصاء [٣] ومن مشهور مدائنها مدينة

---

(١) نزهة المشتاق ورحلة ابن جبير ومعجم البلدان

(٢) معجم البلدان

(٣) انجبت جزيرة صقلية كثيراً من العلماء والادباء والشعراء والفلاسفة والاطباء ممن لهم شأن في الادب العربي وا كثرهم كان بعد زمن الرحلة. ولا بأس بايراد بعض مشهوريهم هنا حتى تكون هذه الرسالة وحواشيها مغنية في هذا الباب. فمن علماء هذه الجزيرة ابو القاسم على بن جعفر السعدى الصقلي المعروف بابن القطاع — قال ابن خلكان: كان أحد أئمة الادب خصوصاً اللغة وله تصانيف نافعة منها كتاب الافعال أحسن فيه كل الاحسان وهو أجود من الافعال لابن القوطية وان كان ذلك قد سبقه اليه، وله

كتاب ابنية الاسماء جمع فيه فاوعى وفيه دلالة على كثرة اطلاعه وله عروض حسن جيد ، وكتاب الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة (أى شعراء جزيرة صقلية) وكتاب لملح الملح جمع فيه خلقا من شعراء الاندلس ـ وكانت ولادته في العاشر من صفر سنة ثلاث وثلاثين واربعمائة بصقليه ، وقرأ الادب على فضلائها كابن عبـد البر اللغوي وأمثاله وأجاد فى النحو غاية الاجادة ورحل عن صقليه لما اشرف على تملـكها الافرنج ووصل الى مصر في حدود سنة خمسمائة وبالغ أهل مصر في اكرامه ـ ومن شعره في ألثغ

وشادن في لسانه عقد حلت عقودي واوهنت جلدي
عابوه جهلا بها فقلت لهم اما سمعتم بالنفث في العقد

وله من قصيدة

فلا تنفدن العمر في طلب الصبا ولا تشقين يوما بسمدى ولا نعم
ولا تندبن اطلال مية باللوى ولا تسفحن ماء الشؤن على رمم
فان قصاري المرء ادراك حاجة وتبقى مذمات الاحاديث والاثم

الى آخر ما قال . وتوفي بمصر في صفر سنة خمس عشر وخمسمائة

ومن علماء صقلية ابو عبد الله محمد بن ابى محمد بن ظفر الصقلى المنعوت بحجة الدين ، قال ابن خلـكان: صاحب التصانيف الممتعة

ككتاب سلوان المطاع، في عدوان الاتباع، صنفه لبعض القواد بصقلية سنة اربع وخمسين وخمسمائة، وخير البشر بخير البشر وكتاب الينبوع فى تفسير القرآن الكريم وكتاب نجباء الانباء وشرح المقامات للحريرى وهما شرحان كبير وصغير

ويروى له شعر فمن ذلك قوله

حملتك فى قلبي فهل أنت عالم بأنك محمول وانت مقيم
الا أن شخصاً فى فؤادي محله واشتاقه شخص عليّ كريم

الى أن قال ـ وكانت نشأته بمكة وتنقل فى البلاد ومولده بصقليه وسكن آخر الوقت بمدينـة حماة وتوفي بها سنة خمس وستين وخمسمائة ـ ومن علمائها ابو عبدالله المازري وسيأتي القول عليه ـ ومنهم بو بكر محمد بن سابق الصقلى قال ابن بشكوال فى الصلة : كان من أهل الكلام مائلا اليه قدم الاندلس وأخذ عنه أهل غرناطه وتوفى بمصر سنة ثلاث وتسعين واربعمائة ـ والقاضى الرشيد احمد بن قاسم الصقلي قال العماد : طرأ على مصر وكان قاضى قضاتها فى أيام الافضل: قال : دخل يوماً على الافضل وبين يديه دواة من عاج محلاة بمرجان فقال

ألين لداود الحديد بقدرة يقدره فى السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة على أنه صعب المرام شديد

وابو الفضل العباس بن عمرو الصقلى قال في جذوة المقتبس كان بالاندلس وروي الحديث هناك ـ والفقيه ابو موسى عيسي بن عبد المنعم الصقلى قال العماد : كان كبير الشأن ، ذا الحجة والبرهان ، الي أن قال : ومن بديع قوله في الغزل . وهو أحلي من نجح الامل

يا بنى الاصفر انتم بدمى　　منكم القاتل لى والمستبيح

أمليح هجر من يهواكم　　وحلال ذاك فى دين المسيح

يا عليل الطرف من غير ضنى　　واذا لاحظ قلباً فصحيح

كل شيء بعد ما أبصرتكم　　من صنوف الحسن في عيني قبيح

وولده الفقيه أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم الصقلى قال العماد : كاتب شاعر ، بارع ماهر ، مهندس منجم ، لغارب الفصاحة متسنم ، وفي ملتقى اولى العلم كمى معلم ، الى آخر ماهنالك وقال صاحب طبقات الحكماء . هو من أهل العلم بعلم الهندسة والنجوم ماهر فيهما قيم بهما مذكور بين الحكماء هناك ومن شعره

كتمت الذى بى فانتفعت بكتمانى

وأعلنت حالى فاتهمت باعلانى

وما خلت أن الأمر يفضي الي الذى
رايت ولكن كل شيء يرى فانى

ومنه

أنا والله عاشق لك حتى ليس لى عنك يا مني النفس صبر
وحياتى ان تم لى منك وصل ومماتى ان دام لي منك هجر

« وهذا ابو عبد الله هو غير أبى عبد الله الصقلى الفيلسوف المذكور في الرحلة » ومنهم ابو الحسن على بن حمزة الصقلى قال في جذوة المقتبس : دخل الاندلس قبل الاربعين واربعمائة وكان يتكلم فى فنون ويشارك في علوم الى آخر ما قال — والفقيه ابو محمد بن صمنة الصقلى ذكره العماد فى الخريدة . ومن أطباء صقليه أبو سعيد بن ابراهيم الصقلى صاحب كتاب المنجح فى التداوي من صنوف الامراض والشكاوى ، واحمد بن عبد السلام الشريف الصقلى صاحب كتاب الاطباء في الامراض من الفرق الى القدم ذكرهما صاحب كشف الظنون — ومن فلاسفتها ابو عبد الله الصقلى الآتى ذكره فى الرحلة وابو عبد الله المتقدم ذكره وابو حفص عمر بن الحسن بن القونى الكاتب ذكره العماد وقال انه شاعر كاتب منجم مهندس — ومن ادبائها الشاعر الكبير ابن حمديس قال ابن بسام : هو شاعر ماهر يقرطس اغراض المعاني البديعة ، ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرف في

التشبيه المصيب ، ويغوص في بحر الكلم على در المعنى الغريب ، فمن معانيه البديعة قوله في صفة نهر

ومطرد الاجزاء يصقل متنه   صبا أعلنت للعين ما فى ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى   عليها شكا اوجاعه بخريره
كأن جبانا ريع تحت حبابه   فاقبل يلقى نفسه في غديره
كأن لدجى خط المجرة بيننا   وقد كللت حافاته ببدوره
شربنا على حافاته دون سكره   نقبل شكراً منه عيني مديره

ومنه من قصيدة

بت منها مستعيداً قبلا   كن لى منها على الدهر اقتراح
وأروى غلل الشوق بما   لم يكن فى قدرة الماء القراح

وأول هذه القصيدة

قم هاتها من كف ذات الوشاح   فقد نعى الليل بشير الصباح
باكر لى اللذات واركب لها   سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحي   ريق الغوادى من ثغور الاقاح

وكان قد دخل الاندلس سنة احدى وسبعين واربعمائة ومدح المعتمد بن عباد فأحسن اليه وأجزل عطاياه ، ولما قبض المعتمد وحبس بأغمات صنع ابن حمديس أبياتا عملها المعتمد في الاعتقال فقال

أتيأس من يوم يناقض أمسه
وشهب الدراري في البروج تدور

ولما رحلتم بالندي في أكفكم
وقلقل رضوي منكم وثبير

رفعت لسانى بالقيامة قد دنت
فهذي الجبال الراسيات تسير

وله من أبيات المعانى الغريبة

زادت على كحل العيون تكحلا ويسم نصل السهم وهو قتول

وله يتشوق الى صقلية مسقط رأسه

ذكرت صقلية والهوى يجدد للنفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة فانى احدث اخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي أنهارها

ثم يقول بعد ذلك من أبيات

ولو أن أرضى حرة لاتيتها
بعزم يعد السير ضربة لازب

ولكن أرضى كيف لي بفكاكها
من الاسر في أيدى العلوج الكواذب [1]

---

(١) فارق ابن حمديس صقلية بعد أن تملك معظمها روجر امور منذي وذلك حوال سنة ٤٧١ ﻫ وكان ابن حمديس اذ ذاك حدثا فى منتصف العقد الثالث

ويقول من أبيات يصف جارية له غرقت

واوحشتامن فراق مؤنسة ... يميتني ذكرها ويحييها

اذكرها والدموع تسبقني ... كأنني للأسى اجاريها

جوهرة كان خاطري صدفا ... لها أقيها به وأحميها

يابحر ارخصت غير مكترث ... من كنت للبياع اغليها

أبتها في حشاك مغرقة ... وبت في ساحليك أبكيها

ونفحة الطيب في ذوائبها ... وصبغة الكحل في مآقيها

عانقها الموت ثم فارقها ... عن ضمة فاض روحها فيها

ويلي من الماء والتراب ومن ... أحكام ندين حكما فيها

أماتها ذا وذاك غيرها ... كيف من العنصرين أفديها

وله يصف عوداً

في حجره اجوف له عنق ... نيطت بظهر تخاله حدبه

يمد كفا اليـه ضاربة ... اعناق احزاننا اذا ضربه

قلت ألا فانظروا الى عجب ... جاء بسحر فانطق الخشبه

وله

واشراك الردي في الغيب تخفى ... كما يخفين في ترب الحضيض

عجبت لجمـه فيهن صيداً ... حوي بين القشاعم والبعوض

ولـه يصف خسوف القمر

والبدر قدذهب الخسوف بنوره
في ليلة خسرت أواخر مدها
فكأنه مرآة قين احميت
فمشي احمرار النار في مسودها

ومن أبيات له يصف البق والبراغيث والبعوض

نومي على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تذاءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خمراً تداوم شربها مسترخصات منه ما لا يرخص
فترى البعوض مغنياً بربابه والبق تشرب والبراغيث ترقص

واليك أبيات له من السهل الممتنع يصح أن يتغنى بها

هات كاس الراح أوخذها اليك ينزل اللهو بها بين يديك
ريقة العيش بها فاخلع على شفتيها كل حين شفتيك
وأطع فيها نديميك بما حكما واعص عليها عاذليك
واذا سقيت منها شفقا طلعت حمرته في وجنتيك
وتناول نشوة من روضة طلعت كالشمس بالنجم عليك
تتغنى بنسيب قلتـه فهواها راجع منك اليك
فاوضت في الوصل عيني عينها فازدهت عجبا وقالت ما لديك

أعليل أنت ماذا تشتهى   قلت قطفى بيدى رمانتيك
فانثنت كبرا وقالت ويلتا   او هذا كله يطلب ويك
أنا شمس وبعيـد فلـكى   وضيائى نافر من راحتيك
لو بدا أمرك لى من قبل ذا   ما رأت ناظرتى ناظرتيك

وشعره كله جيد مختار ينم عن فحولته وصدق نزعته الشعرية وله ديوان شعر يوجد منه نسخة فى دار الـكتب الملـكية بمصر توفى سنة سبع وعشرين وخمسمائة بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية -- ومن ادبائها ابو العرب مصعب بن محمد بن ابى الفرات القرشي ، قال العماد : ولد بصقلية سنة ثلاث وعشرين واربعمائة وخرج عنها لما تغلب الروم عليها سنة اربع وستين واربعمائة قاصداً الى المعتمد بن عباد ؛ وله من أبيات

الى م اتباعي للأمانى الـكواذب
وهذا طريق المجد بادي المذاهب
أهم ولي عزمان عزم مشرق
وآخر يثني همتي للمغارب
ولا بد أن أسأل العيس حاجة
تشق على أخفافها والغوارب

عليّ لآمالي اضطراب مؤمل
ولكن على الأقدار نجح المطالب
فيا نفس لا تصحبي الهون انه
وان خدعت أسبابه شر صاحب
ويا وطني ان بنت عني فانني
سأوطن أكوار العتاق النجائب
اذا كان أصلي من تراب فكلها
بلادي وكل العالمين أقاربي

« وهذا من قول ابن المعتز
اذا كنت في الناس ذا ثروة
فأنت المسود في العالم
وحسبك من نسب صورة
تخبر أنك من آدم »

وما ضاق عني في البسيطة جانب
وان جل الا اعتضت منه بجانب
اذا كنت ذا هم فكن ذا عزيمة
فما غائب نال النجاح بغائب

ـ ومنهم عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الاغلبي السعدي

الصقلى المعروف بالقاضي الجليس ــ قال ابن شاكر الكتبي صاحب فوات الوفيات تولى ديوان الانشاء للفائز (العلوى صاحب مصر) مع الموفق بن الخلال ــ ومن شعره

ألمت بنا والليل يزهي بلمة
دجوجيـة لم يكتهل بعـد فوداها
فأشرق ضـوء الصبح وهو جبينها
وفاحت أزاهـير الربى وهي رياها
اذا ما اجتنت من وجهها العين روضة
اسالت خلال الروض بالدمع أمواها
وانى لأسـتسقى السحاب لربعها
وان لم تكن الاضـلوعى مأواها
اذا اشعلت نار الأسى بين أضلعى
نضحت على حر الحشا برد ذكراها
ومابي أن يصـلي الفؤاد بحرها
ويضرم لولا أن فى القلب سكناها

ومنه

ومن عجبٍ أن الصوارم والقنا تحيض بأيدى القوم وهى ذكور
واعجب من ذا انها فى اكفهم تأجج ناراً والاكف بحور

قال : وكان ابن الحباب كبير الانف وكان الخطيب أبو القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد مولعا بأنفه وهجائه وذكر أنفه في أكثر من الف مقطوع فانتصر له ابن قادوس الشاعر فقال

يا من يعيب أنوفنا الشم التي ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب

مات سنة احدى وستين وخمسمائة وقد أناف على السبعين

ـ ومنهم أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن بشرون الكاتب الصقلى صاحب كتاب المختار فى النظم والنثر ، لافاضل العصر ذكره العماد وأورد له شعراً جزلا . ومنهم تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة يوسف بن عبدالله بن محمد بن الحسين القضاعى الكلبي صاحب صقلية ، قال ابن خلكان كان أديباً شاعراً وله الابيات السائرة في غلامين على أحدهما ثوب ديباج أحمر وعلى الآخر ثوب ديباج اسود وهي

ارى بدرين قد طلعا على غصنين في نسق
وفي ثوبين قد صبغا صباغ الخد والحدق
فهذي الشمس في شفق وهذا البدر في غسق

وكان عمله لهذه الابيات سنة سبع وعشرين وخمسمائة .

ومنهم أبو عبدالله محمد بن على الصباغ الكاتب قال ابن القطاع :

كان في عهد ابن رشيق وبينهما مراسلات وله

قومى اللذين اذا السنا بك انشأت
دون السحاب سحائباً من عثير
برقت صوارمهم وأمطرت الطلا
علقاً كثرثار الحيا المتفجر
الواترين فلا يقاد وتيرهم
والفاتكين بحمير وبقيصر
والمانعين حماهم ان يرتعى
والحاسمين لكل داء يعترى

ـ وابو الفضل مشرف بن راشد قال ابن القطاع القائل

سرت ورداء الليل أسحم حالك
ولا سائر الا النجوم الشوابك
عشية اعشي الدمع انسان مقلتي
ونمت بأسرار الدموع السوافك
وطاف الكري بالطرف وهو محجب
كما طاف بالبيت المحجب ناسك
سرت موهنا ثم استقلت فودعت
يجاذبها حقف من الرمل عاتك

به غصن بان أثمر البدر طالعاً

عليه قناع من دجي الليل حالك

واحور مكحول المدامع عاقنى

عن الصبر فاستولت عليه المهالك

ـ والامير ابو محمد عمار بن المنصور الـكلبي قال ابن القطاع : كان من أفاضل العلماء ، وسادات الامراء ، وذويد في الفقه والحديث وله :

تقول لقد رأيت رجال نجد	وما ابصرت مثلك من يمان
ألفت وقائع الغمرات حتى	كأنك من رداها في امان
الي كم ذا الهجوم على المنايا	وكم هـذا التعرض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شيء	ولم أسمع بكلبيّ جبان

وقال في ابن عمه شكاية

ظننتك سيفا أنتضيك على العدى

وما خلت اني انتضيك على نفسى

وجئتك ابغي رفعة وكرامة

فأمسيت مقهوراً بقربك في حبس

بلرم قصبة هذه الجزيرة ، وسيأتى القول عليها مفصلا عند ذكر وصولنا اليها ان شاء الله . وبين مدينة بلرم هذه ومدينة مسينى توجد المدن الآتية واقعة على ساحل البحر غربى هذه الجزيرة وهي مدينة ثرمة وليبريـــــــى وبقطش وجفلوذ والقارونية وقلعة القوارب وميلاص وجطين [1] وشنت ماركو . وبين مسينى وبلرم على سيف البحر شرقي الجزيرة وجنوبيها تقع البلدان الآتية . على الترتيب الآتى هكذا . مدينة طبرمين بشرقي مدينة مسينى على مرحلة منها ـ وهى مدينة أزلية قديمة من أشراف البلاد وأعيانها [2] ، وقلعة حصينة من اصول القلاع وأركانها ، وهى على جبل مطل على البحر يسمى جبل الطور [3] وفيها كما حدثني ابو عبد الله الصقلى الفليسوف [4] ملعب من ملاعب الروم القديمة كأنه شعب بوّان الذى يقول فيه ابو الطيب المتنبي

---

(١) ينسب اليها على بن عبد الله الجطيني كما قال ياقوت

(٢) نزهة المشاق (٣) نزهة المشتاق (٤) سيفه الرحالة قريباً

مغاني الشِعب طيبا في المغاني

بمنزلة الربيع من الزمان

ملاعب جنة لو سار فيها

سليمان لسار بترجمان

طبت فرساننا والخيل حتى

خشيت وان كرمن من الحران [١]

غدونا تنفض الاغصان فيه

على أعرافها مثل الجمان [٢]

فسرت وقد حجبن الشمس عني

وجئن من الضياء بما كفاني [٣]

---

(١) يقول: دعت هذه المغاني لطيبها خيلنا وفرساننا الى المقام فاستهوت قلوبنا وقلوب خيلنا حتى خشيت على خيلنا أن تقف فلا تبرح هذا المكان وان كانت كريمة لا يعرفها الحران

(٢) يقول انه كثير الامواه والشجر فالندى يسقط على اشجاره ليلا فهي تنفض على اعراف الخيل مثل الجمان اى الفضة

(٣) يقول سرت وهذه الاشجار تحجب عني حر الشمس وتلقى على من الضياء ما احتاجه

والقى الشرق منها في ثيابى
دنانيراً تفر من البنان [١]
لها ثمر تشير اليك منها
بأشربة وقفن بلا أوانى [٢]
وامواه يصل بها حصاها
صليل الحلي فى أيدي الغوانى

وقد فتح المسلمون هذه المدينة أيام ابراهيم بن احمد ابن الاغلب — وكان عادلا حازما فى اموره ، آمن البلاد ، وعصف بأهل البغى والفساد [٣] وبنى الحصون والمحارس على سواحل البحر حتى كان توقد النار من سبتة فينتهي

(١) الشرق الشمس يقول هذا الشجر كثير الورق ملتف فضوء الشمس يدخل من خلله فيكون على الثياب كأنه الدنانير غير أنه يفر من الاصابع (٢) يقول هذه الاغصان ثمارها رقيقة فكأنها لذلك اشربة قائمة بنفوسها ولا اوانى لها وهذا ينظر الى قول البحتري —

يخفى الزجاجة لونها فكأنها في الكف قائمة بغير إناء

(٣) اتى عليهم واهلكهم

الخبر الى الاسكندرية فى الليلة الواحـدة [١] وذلك [٢] لسبع بقين من شعبان سنة تسع وثمانين ومائتين الموافق اول أغشت الرومى سنة اثنتين وتسعمائة . وكان لفتح هذا البلد اسوأ وقع فى نفس الانبرور صاحب القسطنطينية حتى بقي سبعة أيام لا يلبس التاج وقال لا يلبس التاج محزون [٣] — ثم مدينة قطانية على ستة أميال من مدينة لياج الواقعة بينها وبين طبرمين ، وهى مدينـة كبيرة على ساحل البحر فى سفح جبل النار وتسمى الآن مدينة الفيل لأن فيها طلسما من حجر على صورة فيل كان منصوباً فيما غبر من الأيام على بناء شاهق ثم نقل ونصب داخل المدينة [٤] وبهذه المدينة الاسواق العامرة، والديار لزاهرة والمساجد والجوامع والفنادق والحمامات — ثم مدينة سرقوسة [٥] شرقي مدينة قطانية على مرحلتين كبيرتين

---

(١) ابن الاثير (٢) أى فتح المسلمين مدينة طبرمين

(٣) ابن الاثير (٤) نزهة المشتاق

(٥) هي مسقط رأس الشاعر ابن حمديس وولده محمد بن حمديس

منها . وهي من مشهورات المدن وأعيان البلاد ، تضرب اليها اكباد الابل من كل حاضر وباد ، وهي على ساحل البحر والبحر محدق بها من جميع جهاتها ، وبها ما بأكبر المدن من

ذكره العماد الكاتب وقال انه أشعر من والده وأورد له شعراً جزلا . ولأن وقتهما متأخر عن وقت الرحلة لم نتعرض لهما في الرحلة ، وكذلك ينسب اليها ابو عمرو عثمان بن علي بن عمر السرقوسي النحوى قال السلفى كان من العلم بمكان نحواً ولغة وله تواليف فى القراآت والنحو والعروض وجاء القاهرة وصارت له حلقة للاقراء في جامع عمرو . وينسب اليها الفقيه ابو القاسم عبدالرحمن بن أبى بكر السرقوسى ذكره العماد في الجزيرة وأورد له شعراً :

وقد جاءت سرقوسة فى شعر لابن قلاقس السكندرى يصف به مركبا سار به الى صقلية قال :

ثم استقلت بى على علاتها	مجنونة سبحت على مجنون
هوجاء تقسم والرياح تقودها	بالنون اما من طعام النون
حتى اذا ما البحر ابدته الصبا	ذا وجنة بالموج ذات غضون
القت به النكباء راحة عائث	قلبت ظهور مشاهد لبطون
وتكفلت سرقوسة بأمامنا	فى ملجأ للخائنين أمين

الأسـواق والخانات والمساجد والحمامات والمبانى الرائقة والافنية الواسعة المونقة ، ولها اقليم كبير طوال كله مزارع وجنات واثمار . وقِدَما كان بها سرير ملك الروم، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقلت دار الملك الى مدينة قصريانه الى ان امتلك المسلمون سائر الجزيرة وقد فتح المسلمون سرقوسة هذه رابع عشر رمضان سنة اربع وستين ومائتين الموافق عشرين مايه الرومى سنة سبع وسبعين وثمانمائة — ثم مدائن نوطس وشكلة ورغوص وبثيرة[1] وكركنت[2] وشاقة[3]

---

(١) وهي بلد عبد الرحمن بن محمد بن عمر البثيري الصقلى ذكره العماد الكاتب فى خريدة العصر واورد له قصيدة مدح بها رجار (روجر النور مندى) (٢) ينسب اليها محمد بن الحسن ابن على ابو بكر الكركنتي الفقيه المالكي قال المقريزي فى كتاب المقفى كان من الاخيار وافاضل المسلمين قدم الاسكندرية وتوفي سنة ٥٣٧ (٣) قال ياقوت ينسب اليها ابو عمر عثمان بن حجاج الشاقى الصقلى من سكان الاسكندرية لقيه السلفى وعلق عنه وتوفى في محرم سـنة ٥٤٤ وتفقه على مذهب مالك على الكبر وكتب كتباً كثيرة فى الفقه

ومازَر (١) ومرسى على وطرابنُش (٢) ومدائن اخرى كثيرة (٣) وكلها على ساحل البحر كما اسلفنا عدا مدينة

---

(١) واليها ينسب ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد التميمي المازرى الفقيه المالكي المحدث قال ابن خلكان هو أحد الاعلام المشار اليهم فى حفظ الحديث والكلام عليه وشرح صحيح مسلم شرحاً جيداً سماه كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم وعليه بنى القاضى عياض كتاب الاكمال . وله في الادب كتب متعددة وله كتاب ايضاح المحصول فى برهان الاصول وكان فاضلا متفننا وتوفى في لثامن عشر من شهر ربيع الاول سنة ست وثلاثين وخمسمائة وعمره ثلاث وثمانون سنة

(٢) ينسب اليها عبد الرحمن بن أبى العباس الكاتب الطرابنشي اورد له العماد الكاتب فى الخريدة ابياتاً جزلة في وصف منتزه وكذلك ينسب اليها ابو الحسن بن عبد الله الطرابنشى ذكره العماد ايضا واورد له شعرا ، وسليمان بن محمد الطرابنشي ذكره ابن القطاع فى الدرة الخطيرة .

(٣) ومن مدائن صقلية مدينتا سمنطار وبلنوبة ذكرهما ياقوت قال ومن الاولى ابو بكر عتيق السمنطارى الرجل الصالح

العابد له كتاب كبير في الرقائق وكتاب دليل القاصدين يزيد على عشرة مجلدات قال : قال ابن القطاع . العابد ابو بكر عتيق بن على بن داود المعروف بالسمنطاري احد عباد الجزيرة المجتهدين وزهادها العاملين ، وممن رفض الاولى ولم يتعلق منها بسبب ، وطلب الاخري وبالغ في الطلب ، وسافر الى الحجاز فحج وساح فى البلدان من ارض اليمن والشام الى ارض فارس وخراسان ولقى من بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع وله في دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناه على حروف المعجم فى غاية الفصاحة وله في الرقائق واخبار الصالحين كتاب كبير لم يسبق الى مثله فى نهاية الملاحة وفى الفقه والحديث تآليف حسان في غاية الترتيب والبيان وله شعر فى الزهد ومكائد الزمان ـ ومنه قوله

فتن أقبلت وقوم غفول وزمان على الايام يصول
ركدت فيه لا تريد زوالا عم فيها الفساد والتضليل
ايها الخائن الذى شأنه الاثم وكسب الحرام ما ذا تقول
بعت دار الخلود بالثمن البخس بدنيا عما قريب تزول

قال وقد توفى لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٤٦٤ ـ قال ياقوت والي بلنوبة ينسب ابو الحسن على بن عبدالرحمن واخوه

رغوص فان بينها وبين البحر نحوا من اثنى عشر ميلا — اما مدينة قَصرُيانهِ فهى فى وسط الجزيرة على سن جبل وهي مدينة ازلية قديمة ، وقد كان فيها سرير ملك الروم نقل اليها كما أسلفنا بعد أن ملك المسلمون مدينة سرقوسة لحصانتها ، وقد فتح المسلمون هذه المدينة يوم الخميس منتصف شوال سنة اربع واربعين ومائتين الموافق سلخ يناير الرومي سنة تسع وخمسين وثمانمائة ، ولما فتحها العباس الأغلبي بنى فيها فى الحال مسجدا ونصب فيه منبراً وخطب فيه يوم الجمعة وذل الروم بصقلية يومئذ ذلا عظيما .

« وبعد » فهذا الذى ذكرنا من بلدان هذه الجزيرة انما هو غيض من فيض ونحن اذا حاولنا ذكر سائر المدن

عبد العزيز الصقلي البلنوبى القائل

بحق المحبة لا تجفني	فانى اليك مشوق مشوق
ولا تنس حق الوداد القديم	فذلك عهد وثيق وثيق
وكن ما حييت شفيقا علىّ	فانى عليك شفيق شفيق
ولا تتهمني فيما أقول	فوالله انى صدوق صدوق

والقرى والقلاع المعروفة فى هـذه الجزيرة ، لاحتجنا الى اسفار كثيرة ، وفى هذا القدر غَناء .

وقد رأينا من تمام الفائدة أن نصور للناظر فى هذه الرسالة جزيرة صقلية وبعض بلدانها المشهورة وبلاد قلورية ومدينة ريو وجزائر اقريطش وسردينية وقرشقة وميورقة ومتورقة ويابسة ومدينتى الاسكندرية والمرية وبالجملة كل ما جاء له ذكر فى هذه الرسالة .

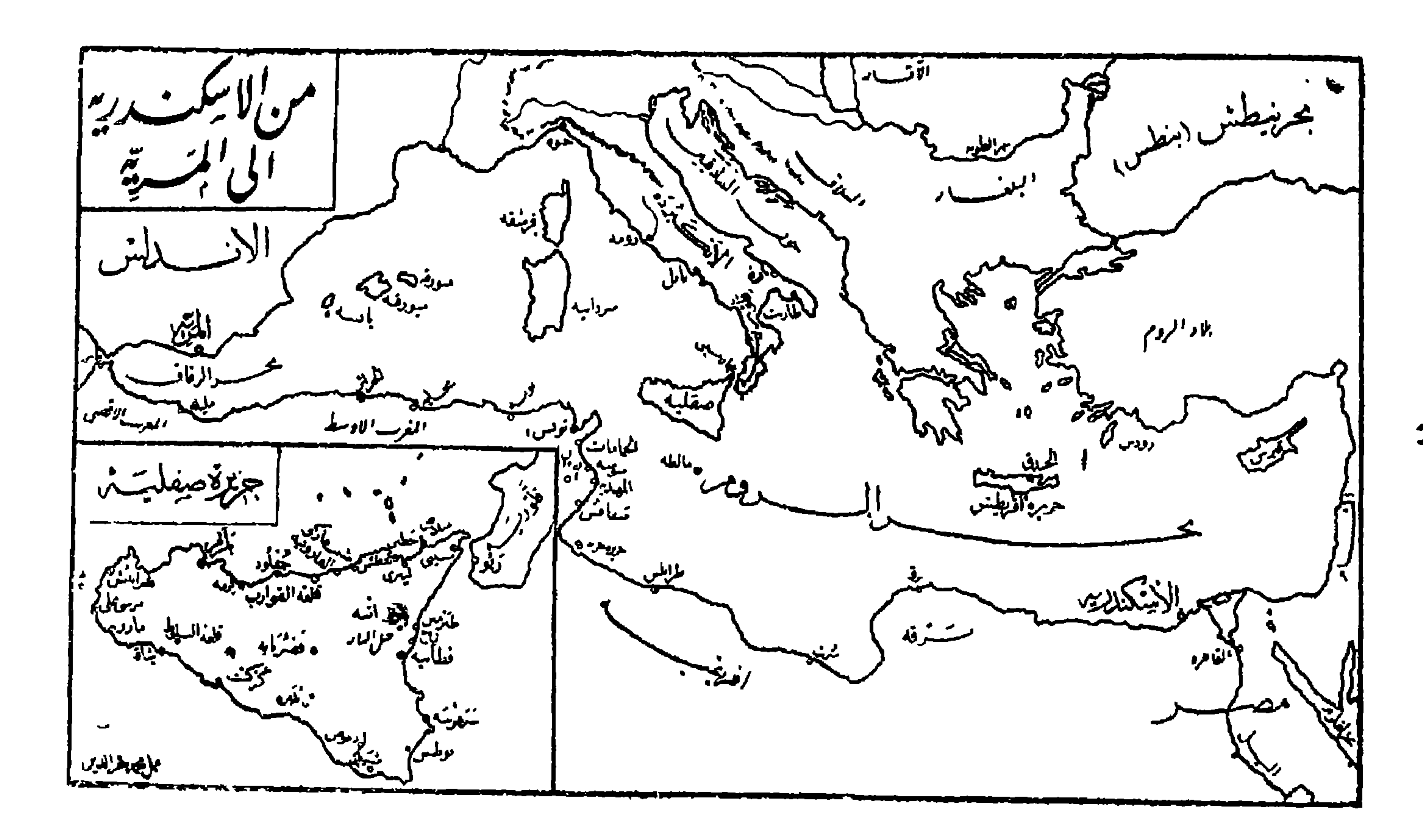
وقد آن لنا أن نرجع الى ما نحن بصدده

* * *

مدينة مسينى

اما مدينة مسينى فهي فى ركن من الجزيرة بشرقيها[١] مستندة الى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجنوبيـة منها ، ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية كما اسلفنا لأن المراكب الكبار

(١) ابن جبير


من الاسكندرية الى المرية
الاندلس
جزيرة صقلية
بحر نيطش (بنطس)
بلاد الروم
البلغار
بحر الروم
الاسكندرية
القاهرة
مصر
برقة
طرابلس
افريقية
صقلية
مالطه
سردانية
قرشقة
ميورقة
منورقة
يابسة
المرية
بحر الزقاق
المغرب الاقصى
المغرب الاوسط
تونس
المهدية
صفاقس
رودس
قبرص
جزيرة اقريطش
رومة
مالقة
انبه
قطانية
سرقوسة
جرجنت

تدنو فيه من البر حتي تكاد تمسكه ولا يحتاج الى زواريق في وسقها ولا في تفريغها الا ما كان مرسياً على البعد منها يسيراً فتراهامصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها وذلك لافراط العمق فيها (١)

وهـذه مسيني هي رأس جزيرة صقلية وهي كثيرة العمائر والضياع، وارضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين ذات اثمار كثيرة ولها أنهار غزيرة عليها ارحاء جمة (٢)

* * *

ولما نزلت هذه المدينة سلمت امتعتي الى أحد الحمالين وقصدت معه الى أحد الفنادق فذهب بي الى فندق قائم على جبل مطل على المدينة، وكان لأحد مغاربة أفريقية، فاحتفى بي صاحبه وبالغ في اكرامي واحتفل في راحتي حتى أنساني برقة حاشيته وطيب أنسه مجاشم السفر وذل الاغتراب ـ وقد صادفت في هـذا الفندق أبا عبد الله الصقلي الفيلسوف وكان قد نهد حفظه الله من بلوم الى مسيني لما علم بقدومي

---

(١) الأدريسي (٢) ابن جبير

فكمل انسي به وعراني من الغبطة والسرور ما لا يقوم بالعبارة عنه بيان. ولا يروم اطّلاع فجه لسان . ولا سيما حين أخبرني ابو عبدالله انه ينتوى الذهوب الى الاندلس وهي منتواي ومقصدى .

* * *

ولما رأيت ابا عبدالله ـ وكنت لم اره قبل ذلك بيدانى سمعت بفضله الجم وعلمه الغزير حتى شغفت برؤيته ـ والأذن تعشق قبل العين احيانا ـ رأيت منه رجلا تشد اليه الرحال، وتضرب الى علمه اكباد الآبال ، ويصاب عنده مقطع الحق واليقين . ويُلفي لديه مفصل السداد في علوم الحكمة والدين

من مبلغ الاعراب انى بعدها
شاهدت رسطاليس والاسكندرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما
رد الاله نفوسهم والاعصرا

ولا جرم فان ابا عبد الله فيلسوف عصره . وواحد قطره . وهو فى علم الطب والحكمة منقطع النظير لا تكاد

تفتح العين على مثله . وقد حذق اللسان الاغريقى واحكم معرفته حتى كأنه من أهله . وهو فى الادب منظومه ومنثوره نادرة الفلك وبكر عطارد .

***

ولقد أقمت فى مسينى ثلاثة ايام بلياليها أنسانى فيها ابو عبد الله الصقلى الفيلسوف بأدبه وظرفه ورقة حاشيته ما يعرو الغريبَ فى البلد النازح من الوحشة والانقباض . ثم علمنا فى اليوم الرابع لمقامنا أن قد ارست على ميناء هذا البلد سفينة كبيرة قادمة من القسطنطينية العظمى قاصدة الى بر الاندلس ، فاعتزمت أنا وأبو عبدالله أن نسافر فيها ، وكان هذا العزم من تمام فضل الله علينا وحسن توفيقه اذ أصبنا فى هذا المركب عند نزولنا فيه مُنْية النفس ومطمح الروح ـ فضل المدنية ـ التى ضرب الدهر بينى وبينها أياما كانت على قلتها كأنها شهور بل أعوام، وكان معها صاحبتاها علمَ المدنية وقَلَم الرومية. وهن كماعلمت ممن حذقن الغناء ونبغن فيه بعد أن تعلمنه فى المدينه المشرفة على صاحبها افضل

الصلاة وأتم التسليم ، وهذه قلم كما أخبرتني اندلسية الاصل رومية من سبي البَشـكنس وحملت صغيرة الى المشرق فوقعت بالمدينـة المنورة ولُقنت هنالك الغناء ، ثم اشـتريت مع علم لامير المؤمنين بالاندلس عبد الرحمن الناصر

* * *

وقد أخبرتني فضل أن المركب الذي كانت فيـه لما ارسي على مسيني بعد ارسائه على ريو لشراء ما يحتاج اليه من الميرة والطعام أُلقِي في رُوعها هي ومن معها أن ينزلن في مسيني ويتركن هـذا المركب ـ وهو لامير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ـ خشية أن يأسره ومن فيه عمال المعز لدين الله الفاطمي لان بلاد صقلية احدى ولايات المعز ، وقد علمت أن المركب كان قد تحرش وهو ذاهب الى المشرق بمركب للمعز ، فأحفظ المعز هذا الامر واخذه منه المقيم المقعد [1] وحمله على أن يطوى كشحه [2] على الثـأر من الناصر ـ ثم أقامت فضل هذه المُديدَة في فندق من فنادقها ،

(١) الغضب (٢) يعزم

فى رَبض من ارباضها ، فقلت يا عجبا كل العجب

أليس غريباً ان نكون ببلدة   كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلم

* * *

أما نبأ هذه السفينة الرومية فذلك أن قسطنطين بن ليون انبرور الروم « امبراطور دولة الرومان الشرقية » كان قد اهدى منذ ثمان حِجَج الى امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر هدايا ذات قدر عظيم ، يتقرب بها اليه ، ويبصبص بذنبه لديه (١) واستدفاعا لمكره وكيده ، واستجلابا لعَطفه ووده ، واستظهاراً به على آخذ بلاده « بلاد قسطنطين » المعز لدين الله (٢) وكان من هذه الهدايا كتاب ديسقوريدس الطبيب ، مصور الحشائش العجيب ، وكتاب هروشيش « هيرودوتس » المؤرخ الرومى العظيم ، وكان الكتاب الاول مكتوبا بالاغريقي ، وهو اليونانى القديم ، والكتاب

---

(١) يتملقه ـ والبصبصة فى الاصل تحريك الكلب ذنبه طمعاً أو خوفا (٢) كان الفاطميون زمن هذه الرحلة في حروب لا تكاد تنقطع بينهم وبين الرومان ، وقد أخذوا من الرومان صقلية والجزء الجنوبى من ايطالية ـ راجع الكلام على صقلية

الثانى كان مكتوبا باللسان اللطينى . وكتب قسطنطين فيما كتب اذذاك الى الناصر « ان كتاب ديسقوريدس لاتجتنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ويعرف اشخاص تلك الادوية ، فان كان فى بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب . وأما كتاب هروشيش فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرؤه باللسان اللطينى وان كشفتهم عنه نقلوه اليك من اللطينى الى اللسان العربى » ـ ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الاندلس من يعرف الاغريقى ، فبقي كتاب ديسقوريدس فى خزانة الناصر كما هو لم يترجم الى العربى ، فلما ولى أمر الروم ارمانيوس بن قسطنطين تقدم اليه الناصر[1] بأن يبعث رجلا يعرف الاغريقى واللطينى ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين[2] فأرسل ارمانيوس فى هذا المركب راهباً عظيما يسمى نقولا . وقد أزلفتُ لك أن ابا عبد الله الصقلى يحسن الاغريقي احسانه للطب والفلسفة والنجوم ، وقد كان اخبرنى أن

(١) أمره (٢) طبقات الاطباء

الناصر أرسل اليه يستحثه على الوفود اليه ليكون فى خدمته [1] فكان ذلك سبباً فى انعقاد الصحبة بيننا وبين هذا الراهب، وقداصبنا منه رجلا جيد ّيثاظريف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب .

* * *

وقد ألفينا فى هذا المركب طبيبين اندلسيين كانا قد رحلا الى المشرق منذ سنين واقاما هنالك نيفا وعشرين سنة ودخلا دار السلام « بغداد » وقرآ فيها على ثابت بن سنان ابن ثابت بن قرة كتب جالينوس ثم قفلا راجعين الى الاندلس مسقط رأسهما . ونزلا فى هذا المركب من أحد الثغور ، وهما أخوان يسمى احدهما عمر والثاني احمد [2]

---

(١) ذكر ابن جلجل ان أبا عبد الله الصقلي كان فى الاندلس أيام الناصر مع الراهب نقولا وقال عنه انه طبيب فاضل وانه يعرف الاغريقى (٢) جاء في طبقات الاطباء أن هذين أحمدوعمر سافرا من الاندلس الى المشرق سنة ٣٣٠ هجرية ثم رجعا اليها سنة ٣٥١ واستخلصهما الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الناصر لنفسه

وهما ابنا يونس بن احمـد الحرانى الطبيب المشهور ، وقد اخبراني ان كتاب ديسقوريدس هذا كان قد ترجه بدار السلام ايام جعفر المتوكل الخليفة العباسى اصطفن بن بسيل المترجم من الاغريقي الى العربي ، وتصفحه حنين بن اسحاق فصحح الترجمة وأجازها ـ قالا : وقد ورد هـذا الـكتاب الى بلادنا « الاندلس » وهو على ترجمة اصطفن (١) وقد قرأناه وصححنا كثيراً من أسماء العقاقير التى لم يعرف لها اصطفن اسماً فى العربيـة ، وقد انتفع كثير من أهل المشرق وأهل الاندلس بالمعروف منه ـ وفى الاندلس اليوم من اخواننا الاطباء نفر توفروا على هذا الـكتاب يصححون اسماء عقاقيره ويعينون اشخاصها ، ومنهم اخونا البسباسى والشجار وابو عثمان اليابسة ومحمد بن سعيد الطبيب (٢) . وكأنا بسيدنا الناصر ادام الله تأييده وقد ابى الا ان يقر الامر في نصابه ، ويغمد السيف فى قرابه ، ويتم امر هذا

---

(١) طبقات الاطباء فى الـكلام على ابن جلجل

(٢) طبقات الاطباء

الـكتاب على مابه ، فطلب الى ارمانيوس ما طلب ، وكل ذلك من سيدنا فضل عناية منه بكل ما يجدى على بلاده ويسمو بها صعُداً الى ابعد مراتب العظمة الذهنيـة كما أبعدت به وباسلافه فى سائر ضروب الحضارة ، وذلك لما فطره الله عليه من العزيمة النافذة، والهمة الطموح البعيدة المرمى، فلا يتعاظمه امر ، ولا تقف همته دون غاية ؛ وحتى لا يحيك فى صدر انسان ان خلفاء بنى العباس فى المشرق ، أو منافسيه الفاطميين فى افريقيـة قد سبقوه الى شىء لم يسبقهم هو اليه . وأنت تعلم أن هذه الدول الاسلاميـة الثلاث [1] هى اعظم دول الارض اليوم شأنا ؛ واضخمها سلطانا ، والقابضة على زمام الامور . والمالـكة اخصب البلاد من هذا المعمور ، والمستبحر عمران بلادها الى اكثر من المتوقع المنظور . والتى تعد سائر دول الارض من هذه الامم الحمراء كأنها تبع لها وعيال عليها . فتراها لذلك تتهالك

---

(١) الدولة العباسيـة والدولة الفاطمية والدولة الأموية بالاندلس

فى كل آونة على الازدلاف اليها ، وتستنزل رضاها بالهدايا والتحف ، وغريب النفائس والطُرَف ، وتستصرخها بعضُه على بعض فتكون الحتوف ، أسبق من المغضوب عليهم من السيوف

إنّا اذا ما أتانا صارخ فَزِع
كان الصراخ له قرع الظنابيب (١)

ومن ثم ترى هـذه الدول العظمى تتسامى في كل ما يكسبها حسن الاثر ، وجميل الذكر ، ويملأ مسامع الدهر حمداً وثناء ، وينبض له قلب الدنيا فخراً وعلاء ، فتراها لذلك آخذةً بيـد العلم والعلماء ، مالئـة باعطياتها أيدى الشعر والشعراء ، حتى العلوم الفلسفية بجميع ضروبها من الهية وطبيعية ورياضية وطبية وفلكية تعضدها وتغرى القائمين

---

(٢) البيت لسلامة بن جندل ـ يقول : اذا أتانا مستغيث كانت اغاثته الجد فى نصرته يقال قرع لذلك الأمر ظنبوبه اذا جد فيه والظنبوب هو طرف العظم اليابس من الساق ـ فالشاعر جعل قرع الصوت على ساق الخف في زجر الفرس قرعا للظنبوب

عليها بالاستزادة منها والتقصّي في البحث عن غوامضها ، وتظهر الرغبة فى الحصول على مآخذها من ملوك الروم الذين حشدت فى خزائن كتبهم تواليف فلاسفة اليونان الاقدمين .

* * *

ولقد اقلعت بنا السفينة باسم الله مجراها من ميناء مسينى ، وبكرت مع البازى عليه سواد ، فى فجر يوم الجمعة سَلْخ ربيع الاول ، وذلك لثلاث عشر ليلة خلت من شهر جونيو الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة من مولد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام . وكان البحر هادئا ، والنسيم فاتراً عليلا ، وكانت قبة فضل ومن معها بمرأى منا ومسمع . وكان معنا اديب من ادباء صقلية لم نكن ندرى أين وجهته ولكنه نزل بعد ذلك فى جزيرة ميورقه ، وكان قد ندّ منه عقيب اقلاعنا من مسينى امر افضى الى حديث لا علينا اذا نحن اوردناه في هذه الرسالة تطرية للقول : وذلك انا بعد ان صلينا الصبح حاضرة وصلى معنا هذا

الاديب الصقلي رأيناه وقد انتحى ناحية وأخذ يصطبح ويلح على ابنة العنب يشربها صرفا لا يقتلها بالماء ، فانكرت عليه ذلك انكاراً شديداً وقلت له : ما تصنع بالخمر ، وان اولها لمروان آخرها لسكر ، فقال : لا اقول لك الا ماقال الاخطل لعبدالملك بن مروان اذ قال له عبد الملك مثل قولك هذا فقال له الاخطل : ولكن بين هاتين لمنزلةً ما مُلك امير المؤمنين فيها الا كملقة ماء من الفرات بالاصبع

ثم انشد الاخطل

اذا ما نديمي علّني ثم علّني
ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل تيها كأنني
عليك أميرَ المؤمنين اميرُ

« وبعد » فلله ذلك الطائر الفردوسى البديع الذى كأنه روح هبط على هذه الغبراء من المحل الارفع ومعه تلك الهدية التى لا هدية مثلها ، تلك البذور الثلاث [1] التى

---

(١) نشير بذلك الي خرافة جميلة ذكرها المسعودي في كتابه

مروج الذهب وهي أن أحد ملوك الهنـد الاقدمين كان جالساً
ذات يوم فى قصره واخوته حوله فأخذت عينه طائراً قد أفرخ
في أعلا قصره ورآه يضرب بجناحيه ويصيح فتأمل الملك ذلك
فنظر الى حيـة تنساب الى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر
فدعا الملك بقوس فرمي الحية فصرعها وسلمت فراخ الطائر فجاء
الطائر بعـد هنيهة يصفق بجناحيه في منقاره حبة وفي مخلابيه
حبتان وجاء الى الملك وألقى ما كان فى منقاره ومخلابيه والملك
يرمقه فوقع الحب بين يدي الملك فتأمله وقال ما ألقى هـذا الطائر
ما ألقى الا انه اراد بلا شك مكافأتنـا على فعلنا به فاخذ الحب
وجعل يتأمله فلم يعرف مثله فى اقليمه فقال جليس من جلسائه
حكيم وقد نظر الى حيرة الملك في الحب أيها الملك ينبغي أن
يودع النبات ارحام الارض فانها تخرج كنه ما فيـه فتقف على
الغاية منه واداء ما فى مخزونه ومكنونه فدعا بالاكرة وامرهم بزرع
الحب ومراعاته وما يكون منه فزرع فنبت وأقبل يلتف بالشجر
ثم حصرم وأعنب وهم يرمقونه والملك يراعيه الى أن انتهي في
البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفا أن يكون متلفا فأمر
الملك بعصر مائه وان يودع فى اوان وافراد حب منه وتركه على
حالته فلما صار فى الآنية عصيراً هدر وقذف بالزبد وفاحت له

اظنه الا انه اختلسها من عنب الجنة ليتحفنا بها فنز درعها
ونفزع الى عصيرها فى هذه الحياة المحزونة المفعمة آلاما

روائح عبقة فقال الملك علىّ بشيخ فاتى به فلدد له من ذلك في اناء
فرآه لونا عجيباً ومنظراً كاملا ولونا ياقوتيا احمر وشعاعا نيراً ثم
سقوا الشيخ فما شرب ثلاثاً حتى مال وأرخى من مآزره الفضول
وحرك رأسه ووقع برجليه فطرب ورفع عقيرته يتغني فقال
الملك هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلا الا ترى
الى الشيخ كيف عاد فى حال الصبي وسلطان الدم وقوة الشباب
ثم أمر الملك به فزيد فسكر الشيخ فنام فقال الملك هلك ثم
ان الشيخ افاق وطلب الزيادة من الشراب وقال لقد شربته
فكشف عنى الغموم وازال عن ساحتي الاحزان والهموم وما
اراد الطائر الا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف فقال الملك هذا
شراب اشرف أهل الارض وذلك انه رأى شيخا قد حسن وقوى
حيله وانبسط في نفسه وطرب فى حال طبيعة الحزن وسلطان
البلغم وجاد هضمه وجاءه النوم وصفا لونه واعترته اريحية فأمر
الملك أن يمنع العامة من ذلك وقال هذا شراب الملوك وأنا السبب
فيه فان كان فلا يشربه غيرى فاستعمله الملك بقية أيامه ثم غا في
أيدى الناس واستعملوه

ليسرّي عنا ويجلو منا صداً الحس ، وينفي الهم عن ساحة النفس

ان الذي جعل الهموم عقاربا جعل المدام حقيقة درياقها

* * *

أقتلا همي بصرف عقار واتركا الدهر فما شاء كانا

إنّ للمكروه لذعة همّ فاذا دام على المرء هانا

* * *

اذا ما أتت دون اللهاة من الفتى

دعا همه من صدره برحيل

فقلت له ولكنها قبّحها الله تسيء من المرء أخلاقه ، وتخمل النابه ، وترفعه الى اسفل ، وتهوى بالشرف الرفيع الى الحضيض الا وهد ، ولله ذلك القرشي حين يقول

من تقرع الكأس اللئيمة سنّهُ

فلا بد يوما أن يسيء ويجهلا

ولم أر مطلوبا أخسّ غنيمة

واوضع للاشراف منها واخملا

خسرعان ما أنشد

اذا صدمتنى الكأس ابدت محاسنى
ولم يخش نَدمانى أذاتى ولا بخلى
ولست بفحاش عليه وان أسا
وما شكل من آذى نداماه من شكلى

ثم قال : والخمر لذلك خليقة ان لا يشربها الا الملوك وأشباه الملوك ، أما السوقة والحشو والغوغاء والحمقى ومن اليهم فيجب أن يُصلّبوا أو يُقتّلوا أو تُقطّع أيديهم وارجلهم اذا هم شربوها

والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عُدّوا باكفائها

* * *

وجدت أقل الناس عقلا اذا انتشي
اقلهم عقلا اذا كان صاحيا
تزيد حُمَيّاها السفيه سفاهة
وتترك اخلاق الكريم كما هيا

وبودى لو أن الكأس بألف والحجر فى وجه الاسد

حتى لا يشرب الا كريم ، ولا ينكح الا شجاع

اجل عن اللئام الراح حتى   كأن الراح تعصر من عظامى

ورحم الله أبا بكر الهذلى اذ يقول للمنصور وقد سأله عن النبيذ : لقد تمادت فيه السفهاء ، حتى كرهته العلماء فقلت له أما تخشى الله يوم الحساب ، فقال

اذا صليت خمساً كل يوم   فان الله يغفر لى فسوقي

ولم أشرك برب الناس شيئا   فقد امسكت بالدين الوثيق

فهذا الدين ليس به خفاء   دعونى من بنيات الطريق

* * *

الا لا يغرنك ذو سجدة   يظل بها دائما يخدع

وما للتقى لزمت وجهه   ولكن ليأتِيَ مستودِع

ثلاثون الفا حواها السجود   فليست الى ربها ترجع

ورد اخو الكاس ما عنده   وما كنت فى رده اطمع

* * *

اما النبيذ فلا يذعرك شاربه

واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء

قوم يداوون عما فى نفوسهم

حتى اذا استمكنوا كانوا هم الداء

مشمرين الى انصاف سوقهم

هم الذئاب وقد يدعون قراء

فقال أبو عبدالله الفيلسوف : الشراب ضار ونافع، اما أنه نافع فللبدن بأشراقه وتقوية الحرارة الغريزية وانعاشها وانضاج الرطوبات وتنقيح المجارى وإزالة سددها وتقوية الهضم وانارة الدم وادرار الصفراء وترطيبها — وللنفس بانبساطها وتفتيح آمالها وتشجيعها وقتل الهم والفكر الفاسد ومن ثم كان أنفع الأشياء للماليخوليا ثم هو يؤدم بين القلب والقلب، ويبعث الشوق القديم الذى قد ضل فى الاحشاء ــ وكل أولئك اذا استعمل على الوجه الذي ينبغي والا استحالت هذه المنافع مضار، فترى عوض السرور هما وغما وضجراً وسوء خلق، وعوض الصحة مرضاً مزمناً أو موتاً فجائيا، وان ادامة الشراب تبلد الذهن وترخي العصب وتوهن قوى الدماغ وتورث الرعشة والتشنج،

وقد أجمع الحكماء قاطبة على أن مدمن الخمر لا ينجب وان انجب كان الولد أحمق

« وبعد » فان أصدق ما جاء في الخمر قول الله جل شأنه : يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما ثم يقول سبحانه يصف خمر الجنة « لا فيها غَولٌ[1] ولا هم عنها يُنزَفون » فكأن السر في تحريمها هو أنها تغتال عقولنا وتشربها وتورثها الخبل والصداع كما قال الأول

وما زالت الخمر تغتالنا   وتذهب بالأول الأول

وما ألطف قول بعض الظرفاء وقد ترك النبيذ فقيل

---

(١) الغول الصداع والخمار، ولا ينزفون يسكرون وتذهب عقولهم ، والاثم في قوله جل شأنه واثمهما اكبر من نفعهما فهو مايترتب على اقتراف الذنوب والمعاصى من المضار قال ابو نواس

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
واسمت سرح اللهو حيث اساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فاذا عصارة كل ذاك أثام

له كيف تتركه وهو رسول السرور الى القلب فقال نعم ولكنه بئس الرسول يُبعث إلى القلب فيذهب إلي الرأس ويشبه ذلك قول المجنون لملك من الملوك وقد استظرفه واختار أن يكون نديماً له وعرض عليه الشراب فقال المجنون أيها الملك أنت تشرب هذا لتصير مثلي وأنا أشربه لأصير مثل من ! وقال عبدالعزيز بن مروان لنُصَيب الشاعر يوما هل لك فيما يُثير المحادثة - يريد المنادمة - قال أصلح الله الأمير الشَعَر مفلفل واللون مرمد ولم أقعد اليك بكرم عنصر ولا بحسن منظر وانما هو عقلي ولساني فان رأيت ألاّ تفرق بينهما فافعل . وقيل لاعرابي لم لا تشرب ؟ فقال لا أشرب ما يشرب عقلي

وناهيكم بعد ذلك بما يستتبعه ادمان الشراب من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن السكر والعربدة ، وإيقاع العداوة والبغضاء والموجدة ، ومن تقبيح الحسن وتحسين القبيح واغرائه بالفسوق وتعدى حدود الله وقلة الاكتراث لها - وصَدَق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ

يقول : لا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن: ولقد مرت اعرابية بقوم يشربون نبيذا فسقَوها فلما شربت أقداحاً اعترتها أريحية فقالت أيشرب هذا نساؤكم قالوا نعم قالت إذَنْ زنَين ورب الكعبة فما يدرى أحدكم من أبوه !

* * *

ولاصحاب الشراب ولوع به واستهتار الى الحد الذى لايفكرون معه فى دين ولا مروءة ، قيل لأبى نواس اتشرب الخمر قال نعم : اذا اشترى بثمن خنزير قد سرق حتّى يحرم ثلاث مرات وهو القائل

الا فاسقني خمراً وقل لى هي الخمر
ولا تسقنى سراً اذا امكن الجهر
فما الغبن الا أن ترانى صاحيا
وما الغنم الا أن يتعتعنى السكر

وقيل لثمامة لم تشرب الخمر وهى تزيل العقل فقال ان زال اليوم لايزول غداً . وباع بعض الاشراف من اصحاب الشراب ضيعة فقيل له احضر العشية للاشهاد فقال لو

كنت ممن يصان بالعشيات لما بعت الضيعة . وقال رجل لآخر منهم لقد وجهت اليك رسولا عشية أمس فلم يجدك فقال هذا وقت لا أكاد أجد فيه نفسي . ويقول أحدهم وددت أني أكون بعوضة فأموت تحت قربة نبيذ حتى يكون موتي في ظلال نعيم . ولما ولي الحسن بن زيد رضي الله عنه المدينة قال لابن هَرْمة الشاعر : لست كمن باع دينه رجاء مدحك أو خوف ذمك فقد رزقني الله بولادة نبيه صلى الله عليه وسلم الممادح وجنبني المقابح . وإن من حقه عليّ أن لا أغضي على تقصير في حق ربه وأنا أقسم لئن أُتيت بك سكران لأضربنك حدا للخمر وحدا للسكر ، ولأزيدن لموضع حرمتك بي فليكن تركك ذلك لله تُعَن عليها ولا تدعها للناس فتوكل اليهم فقال ابن هرمة .

نهاني ابن الرسول عن المدام وأدبني بآداب الكرام

وقال لي اصطبر عنها ودعها لخوف الله لا خوف الأنام

وكيف تصبري عنها وحبي لها حب تمكن في عظامي

أرى طيب الحلال عليّ خبثا وطيب النفس في خبث الحرام

وقيل لرجل من أصحاب الشراب ما تقول فى الماء فقال هو الحياة ويشركني فيه الحمار ، فقيل له فاللبن قال ما رأيته الا ذكرت أمىّ واستحييت قيل فالخمر قال تلك السارة البارة شراب أهل الجنة . ودعا الوليد بن يزيد شراعة من الكوفة وهو من فتيانها فلما قدم عليه قال له انى والله لم أدعك لا سألك عن قرآن أو لأستفتيك فى سنة فقال لو سألتنى عنها لأصبتنى فيها ثورا ، فلم دعوتنى قال لأسألك عن الفتوة فقال انا دهقانها الخبير وعالمها الطبيب فسل فقال ما تقول فى نبيذ التمر ، قال اشربه حتى تحر ، قال فنبيذ الدن ، قال اشربه حتي تجن ، قال فالداذى قال احلى من الماذى قال فنبيذ الزبيب فستر وجهه وقال العظمة لله ، قال فالخمر قال لا أرى شربها قال ولم قال لانى لا أؤدى شكرها

وهذا قليل من كثير ورحم الله من قال

لم يبلغ الشيخ ابليس ارادته

حتي تكاثف في عنقوده العنب

وفى الحق ما يقول ابليس : مهما اعجزنى ابن آدم فلن

يعجزني اذا سكر أن آخذ بزمامه فاقوده حيث اشاء واحمله على ما اريد

* * *

ولربما بلغت جناية الشراب وادمانه ، إلى ما يأنف الحيوان الاعجم من اتيانه . روَوا ان قيس بن عاصم احد أشراف العرب فى الجاهلية كان يتردد عليه تاجر خمر فيبتاع منه ويقيم الخمار فى جواره حتى ينفد ما عنده فشرب قيس ذات يوم فسكر سكراً قبيحا فجذب ابنته وتناول ثوبها ونظر الى القمر وتكلم بشيء ثم انتهب مال الخمار وأنشأ يقول :

من تاجر فاجر جاء الاله به
كأن لحيتـه اذناب اجمـال
جاء الخبيث ببيسانيـة تركت
صحبي وأهلي بلا عقل ولا مال

فلما صحا أُخبر بما قال وما صنع فآلى ان لا يذوق خمرا أبدَ الدهر

* * *

وللسكارى فعال تضحك وتبكي، فمن ذلك أن سكرانا وقع علي الارض فجاء كلب يلحس فاه فجعل يقول

اخوكم ومولاكم وصاحب سركم
ومن قد نشا فيكم وعاشركم دهراً

وقال بعضهم كان في دارنا سكران فقعد على مصلى فتبرز فيه فأخذت بيده الي المستراح فنام فيه فقالت جاريتي يا عجبا كل شيء منه مقلوب يتبرز حيث ينام الناس وينام حيث يتبرز الناس . وان صاحب السكر يصير اما الى قردية وهو الذي يضحك ويرقص ويحاكي، او الى كلبية وهو الذي يهارش، أو الى خنزيرية وهو الذي يتقيأ ويتبرز ويتلوث فيهما. ومن هنا كانت الخمر حقيقة لا تتفق والمروءة والعزة والكرامة ، ولا تجتمع والشرف في غمد واحد

* * *

ومن خصائص الخمر أنها تخرّق الكف وتورث السخاء الكاذب حتى

ترى اللحز الشحيح اذا امرّت

عليه لماله فيها مهينا

وكلما تكرر الشراب، تكرر التخرق فى الكرم والسخاء فيفضى ذلك على مرّ الايام الى الفقر والفلاكة والشقاء، ويعم ذلك زوج الشارب وولده وكلّ من يعول. وان هذه وحدها لجريمة لا تغتفر، ولو لم يكن ثمّت لصاحب الشراب زاجر غيرها لكان حرًى أن يقلع عنها

* * *

وقد عُرف اصحاب الشراب بسوء العهد وقلة الحفاظ وانهم اصدقاؤك ما استغنيت حتى تفتقر، وما عوفيت حتى تنكب، وما غلت دنانك حتى تنزف، وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك

ارى كل قوم يحفظون حريمهم

وليس لاصحاب النبيذ حريم

اخاؤهم ما دارت الكاس بينهم

وكلهم رث الحبال سؤم

اذا جئتهم حيوك الفا ورحبوا
وان غبت عنهم ساعة فذميم
فهذا ثنائي لم أقل بجهالة
ولكنني بالفاسقين عليم

* * *

وقد تبلغ الخمر بصاحبها الى أن تشوه خلقه فترى مدمنها يوما وقد عظم أنفه واحمر وتورم كما يقول شاعر فى حماد الراوية

نعم الفتى لو كان يعرف ربه
ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه
مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه
فبياضه يوم الحساب سواد

* * *

أخو الشراب ضائع الصلاة
وضائع الحرمة والحاجات
وحاله من أقبح الحالات
فى نفسه والعرس والنبات
أف له أف ألي آفات
خمسة آلاف مؤلفات

* * *

وجملة القول ليس بعد قول الله جلّ شأنه وإثمهما أكبر من نفعهما مجال لقائل ، والسلام على من اتبع الهدى .

* * *

وأنا لفى ذلك إذ اندفعت فضل المدنية تغنى على عودها هذه الأبيات

بيد الذى شغف الفؤاد بكم
تفريج ما ألقي من الهم
فاستيقنى أن قد كلفت بكم
ثم افعلى ما شئت عن علم

قد كان صرم فى المات لنا

فعجلت قبل الموت بالصرم

فاستخف غناؤها ابا عبد الله حتى كاد أن يخرج من جلده فرحا ، وتحرك الراهب واهتز ثم غمغم كلمات ترجمها الينا ابو عبد الله بما يقارب قول الطائى حبيب بن أوس

ولم افهم معانيها ولكن ورت قلبي فلم اجهل شجاها

فصرت كأننى اعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها

ثم اندفعت تغنى

آها على بغدادها وعراقها

وظبائها والسحر من احداقها

ومجالها عند الفرات بأوجه

تبدو اهلتها على اطواقها

متبخترات فى النعيم كأنما

خلق الهوى العذرى من اخلاقها

نفسي الفداء لها فأي محاسن

في الدهر تشرق من سني اشرقها (١)

فأخذ العلج ينشج نشيجا حارا ويبكي بكاء عاليا حتى اذا سكت عنه البكاء قال ما معناه : لقد هاجت لي داء دفينا : ثم سكتَ وسكتت فضل وسكتنا ومضت السفينة لِطيتها

* * *

وكان سيرنا في محاذاة الساحل بحيث نبصره رأي العين، وصرنا نسرّح النظر في عمائر وقرى متصلة ،وحصون ومعاقل في قلل الجبال مطلة ، وقد ارسل الله الينا ريحا طيبة رخاء زجت السفينة تزجية طيبة ، فكانت تلك الساعة من اطيب ما يظفر به السَفْر (٢)، في هذا البحر ، وما زلنا في

---

(١) الابيات لاحدي الجواري اللائي اشترين من المشرق لاحد امراء الاندلس واسمها قمر ذكرها صاحب نفح الطيب

(٢) المسافرون

انعم حال واطيبها حتى استقام ميزان النهار وقام قائم الظهيرة واذ ذاك ابصرنا عن يميننا تسع جزائر متجاورات آنسنا فيها دخانا يتصاعد من جبلين في جزيرتين من هذه الجزائر ، فرأيت بعض المسافرين وقد ضربوا باذقانهم الارض ، لما ألمّ بهم من الذعر ، فقال ابو عبد الله الصقلى لا عليكم أيها الاخوان ، ولا تكونن قلوبكم كقلوب الطير ، تماث(1) كما يماث الملح فى الماء ، ان هذه البراكين مأمونة الناحية . وليست تزفر فى النهار الا هذا الدخان الذى ترون ؛ أما البركان المخوف فهو ذلك الرابض فى الجزيرة الكبرى « صقلية » وقد ابتعدنا عنه والحمد لله ، وهنا سأله بعض القادمين من المشرق الافاضة فى وصف هذه البراكين وسر تلك الفظائع التى تتوارد اخبارها الى المشرق ، فاخذ ابو عبد الله يفيض في القول على طريقته الفلسفية ، ولا بأس اذا نحن اثبتنا هنا زبدة قوله اتماما للفائدة

* * *

---

(1) تذوب

البراكين في صقلية

والجزائر المجاورة لها

وما قاله فلاسفة الاسلام فى ذلك

قال ابو عبد الله ما ملخصه : من المعلوم الذى لا خفاء به ان هذه الكرة الارضية السابحة فى الفضاء [1] بجملتها واجزائها ظاهرها وباطنها طبقات، ساف فوق ساف، مختلفة التركيب والخلقة ، فمنها صخور وجبال صلبة ، واحجار وجلاميد صلدة ، ورمال جريشة ، وطين رخو ، وتراب لين وسباخ وشورج ، بعضها مختلط ببعض ، أو متجاورة كما قال الله جل شأنه : وفى الارض قطع متجاورات : وهي مختلفة الالوان والطعوم والروائح ، فمن ترابها واحجارها واجبالها حمر وبيض وسود وخضر وزرق وصفر كما قال جل ثناؤه : ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها

---

(١) اخوان الصفاء ـ ومن ذلك تعلم ان العرب سبقوا غيرهم الى القول بكرية الارض وانها سابحة في الفضاء

وغرابيب سود : وهي مع ذلك كثيرة التخلخل والثقب والتجاويف والعروق والجداول والانهار داخلها وخارجها، كثيرة الاهوية والمغارات والكهوف ، وفيها من انواع المعادن السائلة والجامدة ما لا يحصى كثرة ، وهذه الاهوية والامواه اذا حمى جوف الارض بتأثير الشمس فيه كتأثير القمر فى مد البحر وجزره سخنت تلك الامواه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً وارتفعت وطلبت مكانا اوسع ، فان تكن الارض كثيرة التخلخل تحللت وخرجت تلك البخارات من تلك النوافذ ، وان يكن ظاهر الارض شديد التكاثف حصيفا منعها من الخروج وبقيت محتبسة تتموج فى تلك الاهوية لطلب الخروج ، وربما انشقت الارض فى موضع منها وخرجت تلك الرياح مفاجأة وانخسف مكانها ويسمع لها دوى وهدة وزلزلة ، وان لم تجد لها مخرجا بقيت هناك محتبسة ، وتدوم تلك الزلزلة الى أن يبرد جو تلك المغارات والاهوية ويغلظ وتتكاثف تلك البخارات وتجتمع اجزاؤها وتستحيل الى ماء وتخر راجعة الى قاع تلك الكهوف

والمغارات . وتمكث زمانا ، وكلما طال وقوفها ازدادت صفاء وغلظا حتى تصير زئبقا رجراجا وتختلط بتربة تلك المعادن وتتحد بها، وقد تستحيل الى كبريت أو نفط أو غيرهما حسب اختلاف ترب البقاع ، فيكون من ذلك ضروب من الجواهر المعدنية المختلفة الطبائع — قلنا أن فى الجبال جبالا وفى الارض ارضين يجوفها كهوف ومغارات وأهوية حارة ملتهبة ، فهذه الكهوف قد تجرى اليها مياه كبريتية أو نفطية دهنية فتكون مادة لها دائما — فاذا اختنقت هذه المواد بفعل الحرارة ذهبت صعدا تطلب الخلاص — فقد تكون هذه المواد دخانا صرفا كما هى حال هذين البركانين فى هاتين الجزيرتين ، وهذا الدخان يخرج بقوة شديدة حتى لقد يقذف فيه الحجر الكبير فترده ردا قويا وقد تكون هذه المواد احجاراً محترقة ومواد اخرى كبريتية ونفطية نارية تخرج كالسيل العرم فلا تمر بشىء الا احرقته كما يكون من جبل النار الذى فى الجزيرة نفسها ، وترى هذا الجبل يرمى فيما يرمي بجمر كبير كاعدال القطن يقطع

بعضه فى البر فيصير حجراً ابيض خفيفاً يطفو على وجه الماء لخفته ، والذى يقع فى البحر يصير حجراً اسود مثقبا تحك به الارجل فى الحمامات ، وهو كذلك لخفته يطفو على الماء ، ومن غريب الامر انه اذا وقع هذا الحجر على حجر احترق ذلك الحجر واشتعل كما يشتعل القطن حتى يصير ذلك الحجر غبارا كالكحل ، أما الحشيش وسائر ضروب النبات فلا تحترق ، ولا يحترق الا الحجارة والحيوان ، فكأنها نار جهنم التى وقودها الناس والحجارة (١)

هذا ويسمى الاهالى عندنا أحد البركانين الموجودين فى هاتين الجزرتين « بركانا » ويسمون الآخر « استنبرى » ومعنى بركان واستنبرى فيما علمت الرعد والبرق (٢)

وقد لاحظت أن معادن الكبريت الاصفر لا توجد فى الاعم الاغلب الا بجانب البراكين ، ففى هاتين الجزيرتين معدن كبريت لا يوجد مثله بموضع آخر ، رأيته ورأيت القطاع الذين يقتطعونه ـ رأيتهم وقد عرطت

---

(١) تحفة الالباب (٢) تقويم البلدان لابي الفداء

شعورهم وتصلت أظفارهم من حره ويبسه ، وهم يذكرون أنهم يجدونه فى بعض الايام سائلا متميعا فيتخذون له فى الارض مواضع يجتمع فيها ثم يجدونه فى غير ذلك الاوان قد تحجر فيقطعونه بالمعاول ، وكذلك ترى بجانب جبل النار الذى فى الجزيرة نفسها آبار زيت النفط الذي لا يخرج منها الا فى وقت معلوم من السنة — فى شهر شباط وشهرين بعده — فتراهم في ذلك الوقت ينزلون فى هـذه الآبار على درك ويخمر الرجل الذى ينزل فيه رأسه ويسد مسام أنفه (منخريه) وان تنفس فى أسفل البئر هلك لساعته ، وما يستخرجونه من هذا الزيت يضعونه فى اوانى فيعلو الدهن منه وهو المستعمل ، وذلك كله مما يدل على طبيعة هذه الارض الغريبة الشأن ، ولله فى خلقه شؤون ، سبحانه مالك الملك لا اله غيره .

مدينة بلرم

حضرة جزيرة صقلية

ولقائى أميرها أبا الحسين احمد

كان وصولنا الى مدينة بلرم بعد انفصالنا من مدينة مسينى بيومين كاملين ، وكان تعريجنا عليها دون قصد منا اليه ، إذ كانت الريح غير موافقة فى ذلك اليوم وهو يوم الاحد الخامس عشر من شهر جونيو الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة من مولد السيد المسيح ، فاضطررنا أن نقيم فى هذه المدينة ريث أن تأتي الريح الموافقة ، ولقد اهتبلت هذه الفرصة فجلت فى المدينة جولة و َقفت فيها على أشياء كان لا بد من اجتلائيها ، وقد أسعدنى الحظ فقابلت اميرها من قبل المعز لدين الله الفاطمى أبا الحسين احمد بن ابى الحسن الكلبي وجرى بيني وبينه حديث سأذكره لك بعد أن آتى على وصف هذه المدينة ان شاء الله

* * *

مدينة بلرم هي حضرة جزيرة صقلية ، ففيها يقيم الوالى الذى يوليه الفاطمى وفيها قاضى القضاة وديوان الحسبة ، ودار الصناعة ، وفى مينائها يربض اسطولها الاعظم ، ومنها يغدو ويروح مختالا على ثبج هذا البحر فيغزو ما شاء أن يغزو من جزائره وعدوته الشمالية ـ « جنوب اوربا » ـ وهي لذلك كله وبفضل ما أحدثه المسلمون فيها من ضروب العمران تراها من أجمل المدن وأفخمها ـ فهي بهذه الجزيرة ام الحضارة ، والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة ، فما شئت فيها من جمال مخبر ومنظر ، ومراد عيش يانع أخضر ، تطلع لك بمرأى فتان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان . فسيحة السكك والشوارع ، تروق الابصار بحسن منظرها البارع ، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان [1] يشقها نهر ينساب فيها مثل الحية المذعور ، أو السيف المشهور ، ويطرد فى جنباتها أربع عيون زاخرة عليها ارحاء كثيرة لا تحصى

---

(١) رحلة ابن جبير

بلد اعارته الحمامة طوقها
وكساه حلة ريشة الطاوس
وكأنما الانهار فى ساحاتها
خمر وكأن ساحات الديار كؤوس [١]

وهى تنقسم الى خمسة أقسام محدودة متباينة متجاورة فقسم هو المدينة الكبرى التى تسمى بلرم ، ويسكنها التجار ، وفيها المسجد الجامع الذى كان فى القديم بيعة للروم وهو الآن لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المبتكرة من ضروب التصاوير وصنوف التزاويق [٢] التى ابدعها المسلمون فيه يعد من أعجب عجائب الدنيا [٣] النامة عن حذق العرب ومهارتهم فى الصناعة الى الحد الذى لا وراءه ، وفى هذه المدينة وفى أقسامها الاخرى نيف وثلاثمائة مسجد [٤] ولم أر مثل هذا العدد في بلد من البلدان ، ومن غريب الامر

---

(١) ابن اللبان الشاعر الاندلسى (٢) الادريسى (٣) ذكر هذا الجامع بما لايخرج عما ذكرناه نحن كل من الادريسى وابن حوقل (٤) ابن حوقل

انى كنت واقفا فى جوار دار أحد الفقهاء الاعيان فى هذه المدينة وهو ابو محمد القفصى الوثائقى فبصرت قريباً من مسجده على مقدار رمية سهم عشرة مساجد ، ومنها المسجد تجاه المسجد لا يفصلها الا الطريق ، وأغرب من ذلك أن من بين هذه العشرة المساجد ، والى نحو عشرين خطوة من مسجد الفقيه القفصى المذكور مسجداً لابنه ابتناه ليتفقه فيه ، منعزلا عن أبيه [1] ، وهذا عمرك الله مما يستشف الناظر من ورائه ابهة القوم واعتزازهم بسلطانهم وانهم سادة هذه البلاد ، ولا جرم كان ذلك باعثا لهم على التنافس فى المفاخر والمكارم وسائر خلال الخير والكمال ، وهو معنى من المعاني التي يستتبعها الملك والغلب والسلطان [2].

أما القسم الثانى من أقسام بلرم فهو المعروف بالخالصة ، وهو مقام الوالى وأتباعه ، وليس فيه اسواق ولا فنادق ، وبه حمامان ، وفيه مسجد جامع مقتصر صغير ، وفيه حبس الوالى ودار صناعة البحر والديوان . — والاقسام الاخرى

---

(١) ابن حوقل (٢) ابن خلدون في مقدمته

الثلاثة ، فقسم يعرف بحارة الصقالبة ، وهذا القسم أعمر من القسمين السابقين وأجل ومرسى البحر به ، وآخر يسمي حارة المسجد وثالث يسميه القوم الحارة الجديدة ، وأكثر الاسواق فى هذا القسم كسوق الزياتين والصيارفة والصيادلة والخرازين والصياقلة والنحاسين وسوق القمح وسائر الصناع على اختلافهم ، وفى هذه الحارة الجديدة نحو من خمسين ومائة حانوت لبيع اللحم . وهذا مما يدل على استبحار العمران فى هذه الجزيرة ورخاء أهليها وكثرة عديدهم ، فسبحان المعز لمن يشاء

***

ولقد حدثنى الفقيه الوثائقى حديثا يجمل بنا ان نجلوه لك الآن قال[1] : ان المسلمين لما فتحوا هذه الجزيرة ،

---

(١) هذا الحديث من اوله الى آخره انما هو من تلفيقنا لفظاً ومعنى وكل ماهنا لك انا اعتمدنا فى عصارته التاريخية على ماترجمه لنا احد اصدقائنا من كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون خاصا بصقلية

وبلاد قلورية [١] ، من بر الارض الكبيرة [٢] واستوثق لهم الأمر ، ومدت لهم امم الفرنجة يد الاذعان اخذوا حسب عادتهم فى كل بلاد يفتحونها بنية الاقامة فيها ، واصلاح حال اهليها ، فى ان يستنقذوا هذه البلاد من تلك الحمأة المنتنة التى كانت مرتطمة فيها ايام حكم الروم ، فنشروا فى البلاد الوية العدل ، وعمدوا الى الزراعة فانتعشت بعد صرعتها ، والى التجارة فهبت من رقدتها ، والى الصناعة فانتاشوها من وهدتها ، ووثب الاهلون وثبة كانما أنشطوا من عقال ، فكثرت الاموال ، واغدودقت الخيرات الى الحد الاقصى ، وافتن الناس افتنانهم فى ضروب الترف والنعيم واتساع العيش والتأنق فيه والتلون بأزهى الوانه . — قال الفقيه : أما عدل المسلمين فانك لتجد نصارى هذه البلاد لايكاد المسلمون يمتازون عنهم بشىء : فالجميع يرتعون متبجحين متحابين ، وكل متمتع بعيشته وعقيدته

---

(١) كلابرية « جنوب ايطاليه » (٢) اوروبا

وطقوسه فللنصارى كنائسهم كما ان للمسلمين مساجدهم ، واذا جاء عيد من الاعياد رأيت أعلام النصارى بجانب أعلام المسلمين : أما علم النصاري فقد صور فيه صليب مذهب فى بُهرة ساحة حمراء ، وعلم المسلمين قد رسم فيه حصن اسود فى ساحة خضراء[1] أما نساؤهم فربما رأيتهن اليوم «الاحد» وهن ذاهبات الى الكنائس ، وقد تشبهن بنساء المسلمين ، لان المغلوب كما تعلم مولع دائماً بتقليد الغالب ، فانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة ولبسن الحرير الموشى بالذهب ، والتحفن اللحف الرائقة ، وتزين بكل ما يتزين به المسلمات[2]

ان من يدخل الكنيسة يوما
يلق فيها جآذرا وظباء

وليس يطلب من النصارى سوى تلك الاتاوة التافهة المفروضة عليهم لقاء قومة السلطان على الرعية ،وهي ديناران

---

(١) حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون

(٢) ابن جبير

يؤديها غنيهم ، ودينار واحد يؤديه صناعهم وارباب الحرف منهم ، أما النساء والاطفال فليس شيء بمفروض عليهم [١] وهم يقرون بانهم لم يذوقوا طعم هذا العيش الاخضر الا على عهد المسلمين وأما الزراعة فقد شققنا الانهار، واحتفرنا الجداول ، واقمنا عليها القناطر الحاجزة [٢] واحيينا الارض الغامرة ، فأخصبت ودرت وربت ، واخذت زخرفها وازّينت ، وجلبنا الى هنا كثيراً من الاشجار والازهار وضروب النبات التى لم يكن ليعرفها اهل البلاد الاصليون مثل القطن والقصب وشجر الزيتون [٣] والبردى [٤] الذى لا يوجد الا فى مصر وكثير غير ذلك

وأما الصناعة فقد خطت بفضل المسلمين خطوات

---

(١) جوستاف لوبون (٢) قال الدكتور لوبون ان العرب هم الذين حفروا الترع التي لاتزال باقية الى الان وهم الذين اخترعوا الاهوسة ذوات الحواجز وكانت قبلهم مجهولة

(٣) جوستاف لوبون (٤) ابن حوقل

بعيدة المدى فاستثرنا دفائن الارض ومعادنها من الفضة والنحاس والرخام والحديد ، ومهر المسلمون فى ضروب الصناعات الشتى الالوان ، فحذقوا صنع الحرير والصباغة وما اليها [١] وكذلك تراهم قد برعوا وازبوا وتفوقوا فى سائر العلوم الصناعية بله الادبية والدينية والفلسفيه حتى أن الفرنجة لانبهارهم من براعة المسلمين فيما بلغوا يقرفونهم بالسحر [٢] وما هو عمرك الله بالسحر ، ان هو الا تسنمهم

---

(١) قال الدكتور لوبون : ان العرب هم الذين أدخلوا فى البلاد صناعة الحرير وان فى نورمبرج رداء من الحرير مما كان يلبسه امراء صقلية عليه كتابة بحروف كوفية ، قال : وكل شيء يبعث على الاعتقاد بان صناعة صباغة الاقمشة انما انتشرت في اوروبا من صقلية (٢) اورد الدكتور لوبون هذه الحكاية بعد ان ذكر ان الرهبان كانوا ينسبون مخترعات العرب الى السحر قال . فى احدى حملات النورمانديين الذين طرأوا على صقلية فى اواخر ايام العرب في صقلية استكشف الكونت روبارت ويسكرد تمثالا قائما على عمود رخام متوجاً بدائرة من البرنز محفور عليها هذه الكلمات « سيكون لي في اول مايو عند طلوع الشمس تاج

ذروة الكمال ، وهوىّ هـذه الامم الحمراء الى الحضيض الاوهد

والنجم تستصغر الابصار صورته
والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

وأما التجارة فلعلك قد شاهدت كثرة السلع والبضائع المجلوبة الى هذه البلاد ، والحوانيت والمتاجر المتكاثرة فى شوارع البلد ، وكذلك عساك قد أبصرت الحركة المباركة في مينائنا وعمال المكوس فيها مما تتحقق منه أن الجزيرة قد

ذهبي » فلم يدرك احد مغزى هذه الكلمات غير ان عربيا من صقليه كان اسيراً لدي الكونت افهم روبرت انه يدرك معناها الخفي وانه اذا وعده اطلاق سراحه فسرها له فلما وعده روبرت نصح له الاعرابى ان يحفر فى أول مايو عند طلوع الشمس فى المكان الذى ينتهي اليه ظل التمثال ففعل الكونت ذلك فوجد كنزاً هائلا لاتقدر قيمته .

شأت شأواً بعيداً في التجارة بفضل نشاط المسلمين واقدامهم وبعد هممهم ، وكل ذلك بما أثر فيهم روح هذا الدين القويم وآدابه الالهية .

لقائى الامير ابا الحسين احمد

ابن أبى الحسن الكلبى

والى جزيرة صقلية

انى لجالس مع الفقيه الوثائقى فى مسجده بعد أن تغدينا وصلينا صلاة الظهر ثم اخذنا بأطراف الاحاديث بيننا اذ دخل علينا المسجد خادم من قبل الامير ، فذعر الفقيه عند ما اخذت عينه هذا الخادم ، فذعرت لذعره ، ثم قال الخادم أن الامير يدعوك الساعة اليه ومعك ضيفك المصرى ، فقلت للفقيه أَثم ما يخاف منه فأفرخ رَوْعى [1] وقال الآن لا أظن ثَمت شيئا اكثر من رغبة الامير فى أن يستطلع منك طِلْع مصر والمصريين ، واميرنا حفظه الله من خواص اهل الأدب وعِلْيتهم ، وانه لذو حظ عظيم من رجاحة العقل وسجاحة الخلق يحب الادباء ويقربهم اليه ويتحدث معهم كما يتحدث النظير مع النظير ، على أن اليوم فى صقلية كأنه عيد من أعياد الاهلين ، اذ كان قد ورد من أيام على

---

(١) أذهب خوفي

الامير كتاب من أمير المؤمنين المعز لدين الله يأمر الامير فيه باحصاء اطفال الجزيرة وأن يختتنهم ويكسوهم ويحبوهم بالعطايا فى اليوم الذى يختتن فيه ولد أمير المؤمنين ، فكتب الامير خمسة عشر الف طفل ثم اختتن ولده واخوته وقد أمر اليوم باختتان سائر أطفال الجزيرة وخلع عليهم وفرق فيهم مائة الف درهم وخمسين حملا من الصلات وردت عليه من امير المؤمنين [١] فكيف نتوقع شراً من الامير فى مثل هذا اليوم المبارك

وقد كان مع الخادم بغلتان فارهتان من مطايا الامير وقد جللتا بالديباج وحليتا بالفضة ، فركبت أنا والفقيه وسرنا حتى وصلنا الى دور الامارة فوقعت عينى على شيء لم تقع على مثله من قبل

قصور كالكواكب لامعات
يكدن يضئن للساري الظلاما

* * *

---

(١) تاريخ أبى الفداء

وقبـة ملك كأن النجو م تفضي اليها باسرارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بانوارها

* * *

كأن جن سليمان الذين ولو ابداعها فأدقوا فى مغانيها

ولما أن وصلنا الى دور الامارة أشار علينا الخادم بالنزول وأسلمنا الي الحجاب فساروا بنا فى ممر مفروش بالحصباء تتخللها الفسيفساء ، ثم سلكوا بنا حدائق فيحاء ، مترامية الأنحاء ، قد اغلولبت فيها الاشجار ، وتعقلت باغصانها الاطيار ، وانسربت فيها الجداول والانهار ، واعشوشبت فيها النجوم (١) والازهار

والجو من ارج الهواء كأنه ثوب يعنبر تارة ويمسك

وما زلنا إلى انتهينا إلى قصر الأمير ، فرجع الحجاب بعد أن اسلمونا إلى الحجاب المقربين ، فرقى بنا هؤلاء سلما ينتهى بالراقى عليه إلى بهو عظيم يملأ صدر الناظر إليه مهابة وجلالا ، فاجتزناه واجتزنا بعده غرفا ومقاصير عدة حتى

---

(١) كل مانجم من نبات الارض

انتهينا إلى مجلس الأمير، وناهيك به مجلسا لم أر ماهو أحق منه بقول من قال:

قصر لو انك قد كحلت بنوره
اعمى لعـاد إلى المقام بصـيرا

أبصرته فرأيت أبدع منظر
ثمّ انثنيت بناظرى محسـورا

فظننت انى حالم فى جنـة
لـا رأيت الملك فيه كبيرا

تجرى الخواطر مطلقات أعنة
فيه فتكبو عن مداه قصورا

ضحكت محاسنه اليك كأنمـا
جعلت لها زهر النجوم ثغورا

وإذا الولائد فتحت أبوابه
جعلت ترحب بالعفاة صريرا

عضت على حلقاتهن ضراغم
فغرت بهـا أفواهها تكبيرا

فكأنما لبدت لتهصر عندها
من لم يكن بدخوله مأمورا
ومصفح الأبواب تبرا نظروا
بالنقش فوق شكوله تنظيرا
واذا نظرت إلى غرائب سقفه
أبصرت روضاً فى السماء نضيرا
وضعت به صناعها أقلامها
فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة
مشقوا بها التزويق والتشجيرا[1]

فلما أقبلنا على المجلس غلبنى البهر من جلالة الأمير ، فسلم الفقيه الوثائقى ، ثم سلمت بعده بالامارة فردّ علىّ السلام باشا فى وجهى واذن لنا بالجلوس ، وقد كان قاضى القضاة جالساً عن يسار الأمير، ثم أخذ الأمير فى أحاديث

---

(١) الابيات لابن حمديس وقد تمثلنا بها على الرغم من تأخر زمنه عن زمن الرحلة وحسب القارىء تنبيه الي ذلك

شيء يقصد بها لعله أن يؤنسني وينفي الوحشة عن ساحتي وبعد أن آنس مني الانس به قال : أي منتوى ينتوى أخونا المصري ان شاء الله ، فقلت انى أنتوى يا مولاى القطر الاندلسي ، فقال : ومتي زايل مصر ، فقلت منذ نيف وعشرين يوما ، فقال وكيف فارقتها ؟ فقلت على أحسن حال يا مولاى الأمير . فقال : وكيف حال الأمير انوجور وحال كافور معه [1] فقد اتصل بنا أن كافورا قد استبد به وغلبه على أمره . فقلت : اذا كان كافور يا مولاى قد استبد بالامير انوجور فان المصريين قد استبدوا بكافور ، فقد أصبح كافور للمصريين لا لنفسه ولا للأمير ،

---

(١) كان يلى مصر في ذلك الوقت من قبل العباسيين ابو القاسم انوجور الاخشيدي ولصغر سنه كان ابو المسك كافور «وهو الذي اشتراه محمد بن طغج الاخشيد من رجل مصرى يسمى محمود بن وهب بن عباس بثمانية عشر دينارا وجعله أتابك ولديه» فكان كافور قيما على أنوجور مستبدا طبعا بالامر دونه وكانت الدولة الفاطمية المستولية على طرابلس وتونس والجزائر ومراكش في ذلك العهد طامعة فى أخذ مصر وفعلا فتحتها بعد ذلك ببضع سنوات بعد موت كافور

فسيرته فينا عادلة رشيدة ، وحاله معنا جميلة سديدة (١) لأنه يعلم أن الملوك انما هم خدام الرعية فكيف يظلمونها ويستجيزون كيدها ، ولمَ يستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً ؟ على أن كافورا ليس هو وحده الذى ينهض باعباء الملك ، وانما يشد أزره ، ويشاركه أمره ، وزيرنا الأعظم أبو الفضل جعفر بن الفرات وغيره من رجالات الدولة . فقال الأمير: ولكن أليس اليق بكم واسمى وانبل ان يلى أمركم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه أمير المؤمنين المعز لدين الله ، وأنت تعلم أيها الأخ ان العباسيين قد ضعف أمرهم ، وتضعضعت حالهم ، والتاث عليهم ملكهم ، وانتزى الاعاجم والاتراك على البلاد فاقتطعوا الممالك منهم وتفردوا بالامر دونهم (٢) اما عبد الرحمن الناصر صاحب

---

(١) كان كافور كما يقول ابن خلكان من اعظم الملوك جودا كثير الخشية لله والخوف منه وكان يجلس للمظالم بنفسه في كل سبت وكان يرغب في اهل الخير ويعطيهم وقد امتدحه المتنبي بقصائد عدة

(٢) كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المطيع لله وفي

الأندلس فقد اكتفى بما فى يده من الممالك المترامية الأطراف ، فلم يبق الا أن تستظلوا بظل خلفائنا الفاطميين حتى يحموكم ويردوا عنكم طمع الطامعين . وهنا طار طائر الغضب إلى رأسى فلم البث أن اندفعت قائلا :

ان مولاى الأمير حفظه الله يعلم أنه اذا عُدّ من أظلم الظلم وانكر النكر أن ينقض جارح من الجوارح على وكر طائر آمن فى سربه فيزعجه فى سكنه ، وينغص عليه عيشته ، ويستلبه سراحه وحريته ، ويضطره اما الى الظعن الى جو غير جوه ، أو الاقامة بجواره بين مخلبه وظفره ، فان من الظلم الذى لا ظلم وراءه أن تعدوامة على اخرى وحجتها فى

ايامه كانت فارس فى يد معز الدولة بن بويه والموصل وديار بكر ومصر وربيعة فى يد سيف الدولة بن حمدان ومصر والشام في يد الاخشيد والبصرة فى يد ابن رائق وخوزستان فى يد البريدى وكرمان في يد ابي على بن الياس واصفهان والجبل يتنازعها آل بويه ومرداويج وما وراء النهر فى يد بنى سامان وطبرستان وجرجان في يد الديلم والبحرين واليمامة فى يد القرامطة وذلك عدا الاندلس والمغرب

ذلك أن تحميها من طمع الطامعين . اليس من السفسطة ، وأقعد مايقال فى باب المغالطة ، أن يعدو قوم على قوم بحجة أن هـذا العدوان انما هو وقاء لهم من عدوان آخرين ؟ ولم لا تبدأ هـذه الأمة بنفسها فتريح غيرها من عدائها ، ان مولاى الأمير ليعلم أن حب الوطن من الايمان ويقول رسول الله صلوات الله عليه: حب الوطن من طيب المولد: ويقول: لولا حب الوطن لخربت بلادالسوء: على أن فطرة الانسان معجونة بحب وطنه ، ولذلك يقول بقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ، ويقول جالينوس : يتروح العليل بنسيم بلده كما تتروح الارض الجدبة ببلل القطر ، ويروى أنه لما اسر سابور ببلد الروم قالت له بنت الملك ــ وكان قد مرض وعشقته ــ ما تشتهى قال شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر فحملا اليه فبرأ وابلّ من مرضه. والكريم يامولاى يحن الى جنابه ، كما يحن الاسد إلى غابه ، وكفى دلالة على محبة الوطن قول الله جل شأنه : ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الآية ومن

ثم كان ألأم بيت قالته العرب قول القائل :

تلقى بكل بلاد إن حللت بها

ناساً بناس وإخوانا باخوان

فلا جرم أن يتغلغل حب مصر والمصريين فى السواد من حبة القلب منى ، حتى لكأنى المعنى بقول من يقول :

كأن فؤادى من تذكره الحمى

وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

وكيف لا أحب بلدا ولدت فيه ، وأرضه هى أول أرض مس جلدى ترابها، وقد طعمت غذاءها وشربت ماءها النمير ، ماء نيلها المبارك الذى يعذر الاقدمون عن زعمهم ان الجنة منبعه انسرب منها الى هذه الخضراء

بلد صحبت به الشبيبة والصبا

ولبست فيه العيش وهو جديد

فاذا تمثل فى الضمير رأيته

وعليه أفنية الشباب تميد

* * *

ألا يا حبذا وطني وأهلي
وصحبي حين يُدّكر الصحاب
وما عسل ببارد ماء مزن
على ظمأ لشاربه يشاب
بأشهى من لقائكم الينا
فكيف لنا به ومتى الاياب

ومولاى الامير يعلم علماً ليس بالظن أن الحكام الغرباء عن البلاد مهما كانت منزلتهم من العدل لتأبي عليهم سنة الله فى خلقه الا أن يضيموا الرعية التى لا تمت اليهم برحم أو آصرة موطن ، أما رهط المرء فرحم الله من قال

لعمرى لرهط المرء خيرٌ بقيةً
عليه وان عالوا به كل مركب
اذا كنت فى قومٍ عِداً (١) لست منهم
فكل ما علفت من خبيث وطيب

لذلك كله اقول وأنا آمن الامير

(١) غرباء

ولى وطن آليت ان لا ابيعه
وأن لا ارى غيرى له الدهر مالكا[١]

وهنا اطرق الامير ثم انبعث قاضى القضاة قائلا :
أظن اخانا المصرى لا يغيب عنه أن الارض قد ملئت اليوم جوراً وظلما وعدوانا ، وذاع الفساد ، فى البلاد ، وعم الشر وطم ، فلا بد من امام عادل يملأ الدنيا قسطا وعدلا كما ملئت جوراً وظلما ، ولا يكون هذا الامام الا من ولد

---

(١) البيت من أبيات لابن الرومي يقول فيها بعد هذا البيت

عهدت به شرخ الشباب ونعمة
كنعمة قوم اصبحوا فى ظلالكا
فقد الفته النفس حتى كأنه
لها جسد ان بان غودر هالكا
وحبب اوطان الرجال اليهم
مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وها هو ذا قد
صدق رسول الله وعده وجاء الينا امام المسلمين العادل الرحيم
البار برعيته ، الداعى الى الحق والقائم بنصرته ، مولانا
وابن مولانا المعز لدين الله بن مولانا المنصور بن مولانا
القائم بن مولانا عبيد الله المهدى ادام الله تأييده ، هذا الى
أنه لا يوجد اليوم بين ملوك المسلمين من هو اعز من مولانا
نفراً ، واكثر مالا ووفراً ، واقوى سلاحا وشوكة ، وأبعد
فى سياسة الامم تجربة وحنكة ، فكان لذلك من الواجب
الحتم على كل مسلم أن يعمل على نشر دعوته ، ويستظل
برعايته . فما كاد قاضي القضاة يتم كلامه حتى ابتدرت فقلت
ان المصريين لا ينكرون على امير المؤمنين المعز لدين الله
شيئا مما قلت بيد أن مولانا حفظه الله يعرف مما عرف من
طبائع للبشر ان الامة التى تغلب على امرها ، ويخفق عليها
لواء غيرها ، وتصبح بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليها ،
يقصر املها ، ويبلى رجاؤها ، وتضوى ارواحها
واحتمال الاذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الاجسام

وذلك لما خضد الغلب عليها من شوكتها، وكسر من حميتها ، فيفضي ذلك على كرّ الأدهار، وتعاقب الليل والنهار، الى أن ترأم الذل[1] والاستخذاء ، وتشتمل باردية الكسل والوناء ، فيكون من نتاج ذلك ضعف النشاط في القوى الحيوية وهلم حتى يتناقص عمرانهم وتتلاشى مكاسبهم ويعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، فيصبحوا مغلبين لكل متغلب ، طعمة لكل آكل ، نهباً مقسماً لكل ناهب ، وثمت شيء آخر وهو أن الانسان يا مولاى رئيس بطبعه تقتضي الاستخلاف الذى خلق له ، والرئيس اذا غلب على رآسته ، وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده وهذا سر ركب فى غرائز البشر كما انه وجد مثله فى الحيوانات المفترسة ، فانها لا تسافد كما يقولون اذا كانت فى مَلَكة الآدميين

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش أخف منه الحمام

***

---

(١) ترأم تألف

وهنا كأن الامير اراد أن يُطوَى بساط هذا الموضوع فانتقل فجأة الى معنى آخر فقال : هل يحفظ اخونا المصري شيئا مما مدح به المتنبي الشاعر كافورا ؟ وهل لا يزال هذا الشاعر مقيما في مصر ؟ فقلت : نعم يا مولاي الامير ـ لقد فارقت مصر ولما يزل المتنبي في خدمة مولانا الاستاذ أبي المسك كافور ، ولقد امتدحه بأحسن المدح ، وحق له أن يمتدحه ، اذ اللُّها يا مولاي تفتح اللَّها [1] كما يقولون ، فمما يعلق بالذاكرة مما انشدنيه ، قوله فيه ، بعد أن وصف الخيل التي سرت به اليه

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه
وخلت بياضاً خلفها وماقيا

---

(١) اللها الاولى بضم اللام جمع لهوة وهي العطية واللها الثانية بفتح اللام جمع لهاة وهي هناة حمراء في الحنك معلقة على عكدة اللسان

وقوله من قصيدة

وأخلاق كافور اذا شئت مدحه

وان لم أشا تملى عليّ فأكتب

اذا ترك الانسان أهلا وراءه

ويمم كافورا فما يتغرب

وفى هذه القصيدة يقول

وما الخيل إلا كالصديق قليلة

وإن كثرت فى عين من لا يجرب

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها

واعضائها فالحسن عنك مغيب

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب

فكل بعيد الهم فيها معذب

وله فيه قصيدة مطلعها

أود من الأيام ما لا توده

واشكو اليها بيننا وهي جنده

يقول فيها من حكمته البالغة

وأتعب خلق الله من زاد همه
وقصر عما تشتهى النفس وجده
فلا ينحلل في المجـد مالك كله
فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذى المجد كفه
إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

إلى أن يقول

وما رغبتى فى عسجد أستفيده
ولكنها فى مفخر أستجده

وقوله فيه من أخرى مطلعها

من الجآذر فى زى الأعاريب
حمر الحلى والمطايا والجلابيب .

* * *

كأن كل سؤال فى مسامعه
قميص يوسف فى أجفان يعقوب
إذا غزته أعاديه بمسألة
فقد غزته بجيش غير مغلوب
ويعجبني من نسيب هذه القصيدة قوله
كم زورة لك في الأعراب خافية
أدهي ـ وقد رقدوا ـ من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى
إلى أن يقول
ما أوجه الحضَر المستحسنات به
كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفى البداوة حسن غير مجلوب

فقال الأمير : بيد أنه بلغنى اليوم فقط أن المتنبى زايل مصر بأخَرَة وهجا كافورا هجاء قاسيا مرا بأبيات يقول فيها

لقد كنت أحسب قبل الخصيّ
أن الرؤوس مقر النهى
فلما نظرت إلى عقله
رأيتُ النهى كلها في الخُصَى
وماذا بمصر من المضحكات
ولكن ضحك كالبكى
بها نبطي من اهل السواد
يدرس أنساب أهل العلا
وأسود مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى
وشعرٍ مدحت به الكركدن
بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحا له
ولكنه كان هجو الورى
إلى أن يقول

ومن جهلت نفسه قدره

رأى غيره منه ما لا يرى

فقلت إذا كان قد هجاه فقد قال الله جل شأنه والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون ، وصدق رسول الله صلوات الله عليه ، شر الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه ، ورحم الله من يقول لا تؤاخ شاعراً فانه يمدحك بثمن ويهجوك مجاناً ، على أن المتنبي رجل ذو طماعية وطماح ، وكان مولاى الأستاذ أبو المسك وعده بولاية بعض أعماله فلعله رأى منه بعد ذلك مالم يستطع معه الوفاء بما وعد(١) فقال فيه المتنبي ما قال — قال الأمير ولكن للمتنبي فى سيف الدولة بن حمدان وفى غيره ما هو أبرع مما مدح به كافوراً ، ويعجبنى من قصيدة له فى ابن حمدان قوله

---

(١) رووا أن كافورا كان قد وعد المتنبي بولاية بعض اعماله فلما رأى تعاليه في شعره وسموه بنفسه خافه وعوتب فيه فقال ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد أما يدعى المملكة مع كافور

إذا ما سرت فى آثار قوم
تخاذلت الجماجم والرقاب [1]

إلى أن يقول

وكيف يتم بأسك فى أناس
تصيبهم فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم
فان الرفق بالجانى عتاب
وأنت حياتهم غضبت عليهم
وهجر حياتهم لهم عقاب
وما جهلت أياديك البوادى
ولكن ربما خفي الصواب

---

(١) اوضح هذا المعنى ابو بكر الخوارزمي فذكره فى ثلاثة ابيات قال

وكنت اذا نهدت لغزو قوم واوجبت السياسة أن يبيدوا
تبرأت الحياة اليك منهم وجاء اليك يعتذر الحديد
وطلقت الجماجم كل قحف وانكر صحبة العنق الوريد

وكم ذنب مولده دلال

وكم بعد مولده اقتراب

وجرم جره سفهاء قوم

وحل بغير جارمه العذاب

وقوله فيه من قصيدة

يقود اليه طاعة الناس فضله

ولو لمْ يقُدها نائل وعقاب

أيا أسدا فى جسمه روح ضيغم

وكم أسد أرواحهن كلاب

وفي هذه القصيدة يقول

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه

ولو ان ما فى الوجه منه حراب

لها ظُفُر إنْ كَلّ ظفر أعده

وناب إذا لم يبق فى الفم ناب

يغير منى الدهر ما شاء غيرها

وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

الى أن يقول

وللسر منى موضع لا يناله
نديم ولا يفضى اليه شراب

ولله هو إذ يقول فى كلمة له

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقا وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دويا كأنما
تَدَاوَلُ سمعَ المرءَ أنمله العشر
اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة فالفضل فيمن له الشكر
ومن ينفق الساعات فى جمع ماله
مخافة فقر فالذى فعل الفقر

ثم قال الأمير : وهل لا يرى أخونا المصرى لأبى القاسم ابن هانىء الاندلسى شاعر أمير المؤمنين المعز لدين الله ما يستأهل به أن يلزّ مع المتنبي فى قَرَنْ (١)؟ فقلت انى أخشي يا مولاى أن أصرح برأيى. فقال قل وأنت آمن. فقلت انى لا أشبهه يا مولاى الا برحى تطحن قرونا (٢) وانى كلما أُنشدت شعره فكأنى أسمع جعجعة ولا أرى طحنا ، فاربد وجه الأمير غضباً ثم تحالم وقال :

وهل يقال مثل هذا فيمن يقول

يا بنت ذى السيف الطويل نجاده
أكذا يجوز الحكم فى ناديك
عيناك أم مغناك موعدنا وفى
وادى الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنة الكرى وسروافلو
عثروا بطيف طارق ظنوك

---

(١) يجاريه ويتساوى به (٢) هذه الكلمة لابى العلاء قالها لما سمع شعر ابن هانى

ودعوك نشوى ما سقوك مدامة

لما تمايل عطفك اتهموك

حسبوا التكحل فى جفونك حلية

تا الله ما بأكفهم كحلوك

وجلوك لى اذ نحن غصنا بانة

حتى اذا احتفل الهوى حجبوك

ويقول من أبيات فى وصف الخيل

تكاد تحس اختلاج الظنو ن بين الضلوع و بين الحشي

ومن رفقها أنها لا تحس ومن عدوها أنها لا تري

وتحسب اطراف آذانها يراعا برين لها بالمدى

جرين الى السبق فى حلبة اذا ما جرى البرق فيها كبا

ديار الاعزة لكنها مكرمة عن مشيد البنا

وهل لمولانا المعز الذى يقول مثل هذا الشعر

اطلع الحسن من جبينك شمسا

فوق ورد فى وجنتيك اطلا

وكأن الجمال خاف على الورد

م جفافا فمدّ بالشعر ظلا

أن يقرب ابن هانىء اليه ويؤثره على غيره ويعتز به ويفاخر لولا أن رآه من الشعر بحيث لا يكاد يتخلف عن المتنبي ؟ بلى واذا كان في المشرق المتنبي ففى المغرب ابن هانىء . واذا كان فيه عبد الله بن المعتز فعندنا ابن مولانا المعز — الامير ابو على تميم [1] الذى يقول

---

(١) كان تميم بن المعز شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفا ولم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه المعز وقد توفي تميم بمصر سنة ٣٧٤ ﻫ وله شعر جيد يشبه شعر ابن المعتز ، فقد كان يحتذي مثاله ويقف في التشبيهات بجانبه ويفرغ فيها على قالبه . ولا بأس بان نورد هنا قطعاً مختارة من شعره اشادة بذكره وتنويها بقدره لانه يظهر أن كثيراً من ادباء هذا الجيل لا يعرفونه حق معرفته فمن قوله

رب صفراء عللتني بصفرا ء وجنح الظلام مرخى الازار

بين ماء وروضة وكروم وروابٍ منيفة وصحار

تتثني به الغصون عليها وتجيب القيان فيها القماري

وكأن الدجى غدائر شعر   وكأن النجوم فيها مداري
وانجلى الغيم عن هلال تبدى   في يد الافق مثل نصف سوار

ويقول

عتبت فانثنى عليها العتاب   ودعا دمع مقلتيها انسكاب
وسمت نحو خدها بيديها   فالتقى الياسمين والعناب
رب مبدى تمنت جمل العتا   ب رياه وهمه الاعتاب
فاسقينها مدامة تصبغ الكا   س كما يصبغ الخدود الشباب
ما تري الليل كيف رق دجاه   وبدا طيلسانه ينجاب
وكأن الصباح فى الافق باز   والدجى بين مخلبيه غراب
وكأن السماء لجة بحر   وكأن النجوم فيها حباب
وكأن الجوزاء سيف صقيل   وكأن الدجى عليها قراب

ويقول

وزنجية الآباء كرخية الجلد
عبيرية الانفاس كرمية النسب
كميت بزلنادنها فتفجرت
بأحمر قان مثل قطر من الذهب
فلما شربناها صبونا كأننا
شربنا السرور المحض واللهو والطرب

ولم نأت شيئاً يسخط المجـد فعله
سوى أننا بعنا الوقار من اللعب
كأن كؤس الشرب وهى دوائر
قطائع ماء جامد تحمل اللهب
يمد بها كفا خضيبا يديرها
وليس بشيء غيرها هو مختضب
فبتنا نسقي الشمس والليل راكد
ونقرب من بدر السماء وما قرب
وقد حجب الغيم الهلال كأنه
ستارة شرب خلفها وجه من أحب
كأن الثريا تحت حلكة لونها
مداهن بلور على الارض تضطرب

ويقول

كأن السحاب الغر اصبحن أكؤسا
لنا وكأن الراح فيها سنا البرق
الى أن رأيت النجم وهو مغرب
وأقبل رايات الصباح من الشرق
كأن سواد الليل والصبح طالع
بقايا مجال الكحل في الأعين الزرق

ويقول مفتخراً

ألقى الكمى فلا أخاف لقاءه ويفل أقدامي شبا الحدثان
وأكر فى صدر الخميس معانقاً للموت حين يفر كل جبان
وعلمت أخلاق الزمان فلم أضق ذرعا بأيامي وغدر زمانى
وكما يمل الدهر من اعطائه فكذا ملالته من الحرمان
وكما يكر لمعشر بسعادة فكذا يكر لمعشر بهوان
فاذا رماك بشدة فاصبر لها فلسوف يأتى بعدها بليان
وسل الليالى عن نفاذ عزيمتي وسل الحوادث عن ثبات جناني
تخبرك أني لم ألقها بين العزائم واهن الأركان
أصبحت لا أشتاق الا للندي ألفاً ولا أهوى سوي الاحسان
واذا السيوف قطعن كل ضريبة قطع السيوف القاطعات لسانى

ويقول وهو مما يتغنى به

قالت وقد نالها للبين أوجعه
والبين صعب على الاحباب موقعه
اجعل يديك على قلبي فقد ضعفت
قواه عن حمل مافيه وأضلعه
واعطف على المطايا ساعة فعسى
من شت شمل الهوى بالبين يجمعه

وكما يمل الدهر من اعطائه   فكذا ملالته من الحرمان

ويقول

وما أم خشف ظل يوما وليلة

ببلقعة بيضاء ظمآن صاديا

تهيم فلا تدرى الى أين تنتهي

مولهة حيري تجوب الفيافيا

أضرّ بهـا حر الهجير فلم تجد

اغلنها من بارد المـاء شافيا

فلما دنت من خشفها انعطفت له

فألفته ملهوف الجوانح طاويا

بأوجع مني يوم شدت حمولهم

ونادى منادى الحى ان لا تلاقيا

ويقول

كأني يوم ولت حسرة وأسى

غريق بحري الشاطي ويمنعه

وشعره كله مختار ظريف

اما والذى لا يملك الأمر غيره
ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما
لأعلانها عندى أشد وآلم
وبى كل ما يبكى العيون أقله
وان كنت منه دائما اتبسم

وبعد ذلك رأيت من الحزامة أن لا أطيل سبب المحاجة ، فخرجت بالصمت عن لا ونعم ، ثم أمر لى الأمير بعطاء سنى ، ثم اذن لى فى الانصراف من حضرته

* * *

جزائر مَيورقة ومَنورقة ويابسة

وقبل أن اختتم هـذه الرسالة آتى لك على شىء مما اعترضنا فى طريقنا بعد أن انفصلنا من بلرم قاصدين إلى المرّية ، فمن ذلك انا ونحن ازاء جزيرة كبيرة تسمى سردانية

ابصرنا أسطولا كبيرا قادما من ناحيتها ، وقد علمنا ان هذا الاسطول هو اسطول المعز لدين الله ، غزا هذه الجزيرة ، وبلاد جنوه من بر الارض الكبيرة ، وغنم وسبى شيئاً كثيراً يخطئه العد والاحصاء ، وما خام [1] فى سائر غزواته عن اللقاء ، على ما فى ذلك من الغَرَر ، اذ أن وراء هذه البلاد من امم افرنجة عديدَ الذر ، غير أن المعز يفعل ذلك الفَينة بعد الفينة ، لأنه يعلم أن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسما الخسفَ ودُيّث بالصغار [2] ، وانّ امةً من الأمم تريد أن تكون عزيزة مهيبة لا بد من أن تغزو غيرها قبل أن يغزوها الاغيار ، ورضى الله عن على بن أبى طالب إذ يقول فى إحدى خطبه : ما غُزِى قوم قط فى عُقر دارهم الا ذلوا :

* * *

وهذه سردانية جزيرة كبيرة فى غرب هذا البحر

---

(١) خام أى جبن ونكص (٢) اى ذلل يقال للبعير اذا ذللته الرياضة بعير مديث اى مذلل

الروى غزاها المسلمون حوال سنة ٩٢ هجرية الموافقة سنة ٧١٠ ميلادية فى عسكر موسى بن نصير وملكوها حيناً من الدهر ثم تركوا حبلها على غاربها ثم هم الآن يغزونها من وقت لآخر ويغنمون ويسبون لما علمت .

* * *

وقد مررنا فيما مررنا به من جزر هذا البحر بجزائر ثلاث متجاورات تسمى ميورقة ومنورقة ويابسة (١)، وهي جزائر عامرة مأهولة بالمسلمين يرجع أمرها إلى صاحب

---

(١) جاء فى نفح الطيب : وجزيرة ميورقه مسافة يوم . بها مدينة حسنة وتدخلها ساقية جارية على الدوام وفيها يقول ابن اللبانة

بلد اعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاوس
فكأنما الانهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤس

وقال يخاطب ملكها فى ذلك الوقت

وعمرت بالاحسان ارض ميورقه وبنيت ما لم يبنه الاسكندر

والى هذه الجزائر ينتسب جماعة من العلماء والادباء ارجأنا ذكرهم الى الرسالة الرابعة لانها موضع ذلك

الاندلس . وعليها وال من قبله . ومن هنا تعلم أن المسلمين قد ملكوا ناصية هـذا البحر الرومي بما فيه من الجزائر الكبيرة والصغيرة علاوة على جزائر بحر الظلمات « المحيط الأطلسى» كما أسلفنا لك فسبحان المعز لمن يشاء ، وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة المتقين .

* * *

« تمت هـذه الرسالة ـ وقد كتبت على متن البحر وبيننا وبين المرية مسيرة يوم أو بعض يوم. وذلك فى شهر جونيه الرومى سـنة ست وخمسين وتسعمائة الموافقة سنة خمس وأربعين وثلثمائة هجرية »

الرِّسَالَةُ الثَّانِيَة

مِنَ المَرِيَّةِ الى قُرطبة

أظنك يا أخى لا تزال على ذِكر من أن الرسالة الاولى من هـذه الرسائل كتبت ونحن على متن البحر ـ قبل أن نصل الى مرافىء الأندلس ، اما هذه الرسالة الثانية فقد وضعناها بعد أن حططنا رحالنا في قرطبة حضرة هذه البلاد « عاصمتها » وقد خصصت هذه الرسالة بوصف كل ما مر بنا من حين اقترابنا من ميناء المرية إلى أن وصلنا إلى قرطبة .

* * *

اما المرية فهى إحدى مدن الاندلس الكبيرة الواقعة فى شرقيها ، وهى على ساحل البحر الرومى « البحر الابيض المتوسط » وهى مرسى للسفن القادمة الى هـذه البلاد

الاندلس - وفى مينائها يربض الجانب الأكبر من أسطول الاندلس الأعظم والجانب الآخر يرسى فى بجاية - وهي واقعة بين جبلين ، فعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة،وعلى الآخر ربضها،والسور محيط بها وبالربض ، وفي غربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض: ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة واحجار أولية وكأنما غربلت أرضها من التراب،ولهامدن وضياع عامرة متصلة الانهار، وطول واديها أربعون ميلا فى مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وأنهار مطردة وطيور مغردة ،وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام - وبهاالنسيج طرز الحرير ثمانمائة نول .وللحلل النفيسة والديباج الفاخر الف نول ، وللثياب الجرجانية والاصفهانية كذلك - ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف ، وقد علمت أنه لا يوجد فى بلاد الاندلس أكثر مالا من أهل المرية، ولا أعظم متاجر وذخائر - وبها من الحمامات والفنادق نحو

الألف ، وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً ، وفيها كثير من العلماء والادباء والفلاسفة (١)

وجملة القول أن المرية هذه كما رأيت تزخر بالحياة زخراً ، وتنطق بنشاط المسلمين وجدهم ، وباقصي غايات عزمهم لذلك ومجدهم

فلو ان السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لهم السماء

* * *

ولما صافح مركبنا امواه المرية ـ وكان يسير بحذائنا مركب آخر علمنا أن فيه ابا علي القالى اللغوي وافد العراق وسائر من قاموا معنا من الاسكندرية في مركب امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ـ آنسنا من جانب الميناء ـ ميناء المرية ـ اسطولا كبيراً قادما علينا حتى اذا صار منا أذني ذي ظلم (٢) أخذ يحيينا من فيه بالرايات والاعلام ـ وكان فيه الامير عبد الرحمن بن رماحس قائد أساطيل الأندلس الاكبر ـ اذ امره مولاى الحكم بن امير المؤمنين

(١) أرجأنا ذكر من انجبته المرية وبجاية الى الرسالة الرابعة (٢) قريباً جداً

عبد الرحمن الناصر وولي عهده أن يتلقانا في وفد من وجوه الاندلسيين ويجيء معنا الى قرطبة، تكرمة من الامير لنا ولأبي علي القالي حفظه الله ـ فكان من رجال ذلك الوفد شاعر الاندلس يوسف بن هارون الرمادي وابو بكر بن القوطية سيد علماء اللغة في الاندلس وابن رفاعه الالبيري احد ادباء ألبيرة وفتى نشأ يتوقد ذكاء ويقطر أدبا والمعية يسمى أبا بكر الزبيدي وكثير غير اولئك من علماء الاندلس واعيانها وقوادها ـ وهذه عمرك الله اية محسّة على شدة عناية الامير بالعلم واهله ـ ولا بدع فقد وقفنا من ذلك على الشيء الكثير الذي سما بهذا الامير في اعيننا . فمن ذلك فيما تحققناه انه يبعث الحين بعد الحين في شراء الكتب الى الاقطار، رجالا من التجار، ويرسل اليهم الاموال لابتياعها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه في ربوعها، وقد بعث في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني . وارسل اليه فيه الف دينار من الذهب العين : فبعث اليه بنسخة من قبل أن يخرجه الى العراق، وكذلك فعل مع القاضي ابي بكر

الأبهري في شرحه لمختصر بن الحكم ، فهكذا هكذا تكون الملوك والامراء ، وبمثل هذا ينتعش العلم والعلماء.

***

ولما ارسى مركبنا والمركب الذى يقل أبا علي القالى على ميناء المرية قدم لنا ابن رماحس جميع رجال الوفد الاندلسى وعرفنا بهم ثم امتطينا المطايا الفارهة وذهبنا الى دار ابن رماحس الكائنة في قصبة هذه المدينة

ولما استقر بنا النوي وألقينا عصا التسيار ، وانتظم شملنا فى تلك الدار ، أخذ الرمادى الشاعر ينشدنا ابياتا له فى اسماعيل بن عيذون القالي يمتدحه بها،[1] علق بالذاكرة منها هذه الابيات

من حاكم بيني وبين عذولى
الشجو شجوى والعويل عويلى
فى أى جارحة اصون معذبي [1]
سلمت من التعذيب والتنكيل

---

(١) مدح الرمادى ابا على القالى حقيقة بهذه الابيات (٢) من هنوات الشعراء المستظرفة ما روي ان المتنبي لما سمع هـذا البيت

ان قلت فى بصرى فثم مدامعي
أو قلت فى قلبي فثم غليلي
لكن جعلت له المسامع موضعاً
وحجبتها عن عذل كل عذول
الى أن يقول متخلصاً بعد أن وصف الروض
روض تعاهده السحاب كأنه
متعاهد من عهد اسماعيل
قسه الى الاعراب تعلم أنه
اولى من الاعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت
فيهم وحاز لغات كل قبيل

قال : يصونه فى استه : وان الرمادى لما بلغه قول المتنبي
كفى بجسمي نحولا أننى رجل
لولا مخاطبتي اياك لم ترنى
قال ــ وأكرم الله سمع القارىء ــ اظنه ضرطة

فالشرق خال بعـده وكأنما
نزل الخراب بربعـه المأهول
فـكأنه شمس بدت فى غربنا
وتغيبت عن شرقهم بأفول
يا سيدى هـذا ثنائى لم اقل
زوراً ولا عرّضت بالتنويل
من كان يأمل نائلا فانا امرؤ
لم ارج غير القرب فى تأميلى

وبعد ذلك أخذنا فى ضروب من الحديث افضت فى نهايتها الى حادث كدر علينا صفاءنا ، وذلك أن أبا علىّ أخذ ينثر على الحفل درر أدبه فكان من بين ماجاء فى حديثه أدب عبد الملك بن مروان وانه قال يوما لجلسائه : أى المناديل أشرف؟ فقال قائل مناديل مِصر كأنها غِرقِئُ البيض (١) وقال آخر مناديل اليمن كأنها نَور الربيع ، فقال عبدالملك :

---

(١) غرقى البيض القشرة الرقيقة التي تعلو البيضة دون قشرها الاعلى وقشرها الاعلى يقال له القيض

ما صنعتما شيئاً افضل المناديل مناديل أخي بني سعد عبدة بن الطبيب اذ يقول

لما نزانا نصبنا ظل أخبية

وفار للقوم باللحم المراجيل (١)

ورد واشقر(٢) ما ينئيه طابخه(٣)

ما غيّر الغَلْيُ منه فهو مأكول

ثُمتَ قمنا الى جُرد مسوّمة (٤)

اعرافهن لأيدينا مناديل

وانشد القالى الكلمة فى البيت — اعرافها لايدينا مناديل — فما كان من الاديب ابن رفاعة الألبيري — وقد لاحظنا فى خلقه حرجا وزَعارة (٥) الا أن استماد ابا على

---

(١) جمع مرجل وكان حقها المراجل ولكن لما كانت الكسرة لازبة اشبعها للضرورة (٢) أي ماتغير من اللحم قبل نضجه (٣) اى مايؤخره لانه لو آناه لانضجه لان معنى اناه بلغ به اناه اى ادراكه والعرب لا تنضج اللحم لتعجيل القرى ومن ثم قال ماغير الغلى منه فهو مأكول (٤) اي معلمة (٥) شراسة وسوء خلق

البيت متثبتا مرتين ، فى كلتيهما ينشد اعرافها، فقام ابن رفاعة وقال - مع هـذا يوفد على امير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ، والله لا تبعته خطوة ، ثم هم بالانصراف ، فندبه الامير ابن رماحس أن لا يفعل فلم يجد فيه حيلة ؛ فاضطر ابن رماحس الى أن يكتب الى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى من ابن رفاعه ويشكوه ، فجاء جواب الحكم الي ابن رماحس بما نصه كما اطلعني عليه ابن رماحس

« الحمد لله الذي جعل فى بادية من بوادينا من يخطيء وافد العراق الينا ، وابن رفاعه اولى بالرضى عنه من السخط فدعه لشانه واقدم بالرجل غير منتقص من تكريمه ، فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله أو يحطه »[1]

---

(١) هذه الحكاية واقعة تاريخية حدثت لابي على القالى عند دخوله الاندلس

الاسطول الاندلسى

« وروح العظمة التى ترفرف عليه »

أسلفنا لك فى الرسالة الاولى من هذه الرسائل شيئا من القول قد يكون مغنياً فى معنى الاسطول واثره الصالح فى الدولة التى تعنى به ، وان الدولة الفاطميـة فى افريقية ، والدولة الاموية في الاندلس ، لهذا السبب بعينه ولان بلادهما واقعة على سيف البحر الرومي « البحر الابيض المتوسط » وبحر الظلمات « المحيط الاطلانطي » قد بذتا سائر الدول فى العناية بالاساطيل حتى قبضتا بها على أعنة البحار ، واستوتا [1] على ما فيه من جزائر واقطار ، وآضتا بذلك وآضت رعاياهما سادة البر والبحر ، بل ذل الزمان لهم ولانت اعطاف الدهر ، وهـذا هو الذى أرهج بين هاتين الدولتين بالفساد . وأرسل بينهما عقارب الاحقاد ، وأثار بينهما نقع الحرب والجهاد ، حتي لا تكاد الحروب

---

(١) استولتا

بين الدولتين ينطفيء لهيبها ، فتراهما للتافه من الاسباب يجردان الجيوش بعضهما على بعض ، وتتلاقى اساطيلها مصرحة بالشر ، ولعلك لم تنس بعدُ حادثة هـذا المركب الاندلسي الذى قمنا فيه من الاسكندرية ، وانه تحرش وهو ذاهب الى المشرق بمركب للمعز لدين الله الفاطمى وأخذ ما فيه من بريد وبضائع ، فما كان من المعز الا أن أرسل اسطولا كبيراً الى مربض الاسطول الاندلسى فى المرية كما أُخبرنا بذلك ونحن فى هذا البلد ـ فعاث فيه عيثاً ، وألحق به وبالمرية ما ارضاه ونقع غلته وأطفأ لهيبه ، فلم يسع امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الا الانتقام من المعز ، فأمر بتجريد الاسطول وحشد المقاتلة والذهاب الى أفريقية فذهب اليها تحت أمرة حاجبه الوزير احمد بن عبد الملك ابن شُهَيد اسطول كبير يُقل عددا عظيما من رجالات الحرب ، فعاج أولا على مدينة وهران وجمع من فرسان الاندلس المحتلين بلاد المغرب نحوا من خمسة وعشرين الف فارس ثم هجم بالرجالات والفرسان على أفريقية ودارت

بينه وبين رجال المعز رحى الحرب فهزم الاندلسيون قبائل صنهاجة وكتامة ، وكان يتألف منها السواد الأعظم من جيش الافارقة ـ واقتفوا آثارهم حتى بلغوا ضواحى تونس وهي غنية بتجارتها الواسعة يسكنها كثير من تجار اليهود الاغنياء فحصروها براً وبحراً والحوا فى الحصر فلما رأى أهلوها أن الخطر محدق بهم عرضوا أن يسلموهم المدينة وقدموا مبلغاً كبيراً من المال الى الحاجب ابن شهيد ، وقدموا اليه كذلك أنسجة من كل نوع وطرفا من الحلى وذهبا وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير وأسلحة وخيلا وعددا عظيما من الارقاء ، ثم غنم عدا ذلك سفن الميناء واثقالها وضمها الى سفنه وكر راجعاً الى الاندلس

* * *

ومن سننهم التى مضوا عليها وجرت عادتهم بها ان يحتفلوا بالاسطول عند رجوعه ظافرا من حرب ، فتقوم الاساطيل بألعاب وحركات بمرأى من عظماء الدولة ومسمع ، كأنها في حرب مع الاعداء . فاتفق في اليوم الذى وصلنا

فيه الى المرية أن آب الاسطول الاندلسي رافعا أعلام النصر فى هذه الواقعة ، فأمر امير البحر عبد الرحمن بن رماحس بان تقوم الاساطيل بالعابها ، فما كان منا إلا أن بادرنا الى إمتاع أنفسنا بمشاهدة هذه الألاعيب صحبة الامير ، فذهبنا الى الميناء - ميناء المرية - فوجدنا ثمت فى انتظارنا مركبا كبيراً كأنه رَضوي أو ثبير ، أو الامل الكبير ، فدعينا إلى النزول فيه ، ثم أخذ الامير ابن رماحس فى أن يرينا ما فى هذا المركب من بروج وقلاع ومناظر وتوابيت ومن منجنيقات ومكاحل بارود ونفط - ومن نوتية ، ومن مقاتله وأساحة وهلم مما قضينا منه عجبا — وهذا المركب نوع من الانواع التى يتألف منها الاسطول يسمى « الشوانى » الواحد منه « شونه » وبعد ذلك أخذ هذا المركب يسير بنا الهوينا فى اختيال ، مترجحا ذات اليمين وذات الشمال . كأنه عروس مجلوة يرفرف عليها روح الجمال والجلال ، وبعد أن سار بنا فى البحر شيئا وقف حيث نشاهد

حركات الاسطول وألاعيبه ، وكان الشاطىء ساعتئذ قد غصّ بالنظارة من كل صنف من أصناف الناس ، والزوارق قد انتثرت على متن البحر من جميع النواحى ، وفيها ما لا يعلم عديدهم الا الله من الاندلسيين والاندلسيات ، كي يشاهدوا حركات الاسطول — فكان لذلك منظر تحسر دونه الظنون وتتراجع دون ادراكه الاوهام — منظر يبهر رُواؤُه الفكر ، ويُشيع الروعة فى الصدر ، وينتقل من هذا العالم الى عالم آخر كانه الخلود

مجال اسود وملهى سفين فيا طيب لهو ويا منظر
ويا حسن دنيا ويا عز ملك يسوسها السائس الاكبر

ثم بصرنا بعد ذلك بالاساطيل على اختلاف ضروبها ، وقد أخذت بصورة شيطانية فى ألاعيبها ، فاذا رأيت ثَمَّ رأيت كنائن(1) غير أنها تمرق مروق السهام . ورواكد(2) هى مدائن ، بيد أنها تمر مَرَّ السحاب غيرِ الجَهام(3)

---

(١) جمع كنانة جعبة السهام (٢) ثوابت (٣) السحاب الجهام هو الذى لا ماء فيه

واطياراً إلا أنها جوارح ، لا تصيد الا الارواح ، وافراسا في سرعة البرق اللامح ، سوى أنها ذات دُسُر وألواح

تتخاذل الالحاظُ في ادراكها

ويحار فيها الناظر المتأمل

فكأنها في اللطف فهم ثاقب

وكأنها في الحسن حظ مقبل

***

فيا للجوارى المنشآت وحسنها

طوائر بين الماء والجوّ عوما

اذا نشرت في الجو اجنحة لها

رأيت به روضا ونَورا مكمما

***

ذات ُهدب من المجاذيف حالٍ

ُهدبَ باكٍ لِدمعه إسمادُ

حمم فوقها من البيض نارٌ

ُكلّ مَن أرسلت عليه رَماد

* * *

ملأ الكماةُ ظهورَها وبطونَها

فأتت كما يأتى السحابُ المغدقَ

عجبا لها ما خِلت قبل عِيانها

أن يحمل الأُسدَ الضوارى زورق

***

زأرت زئير الاسد وهى صوامت

وزحفن زحف مواكب فى زورق

* * *

ترمى ببروج ان ظهرت لعدو مخرقة بطنا

وبنفط ابيض تحسبه ماء وبه تذكى السكنا(١)

* * *

وما زالت الاساطيل تلعب كأنها فى سُوح القتال ،

---

(١) البيتان من ابيات لابن حمديس يمدح بها ابا يحيي الحسن بن على بن يحيي يقول فيها

انشأت شوانى طائرة وبنيت على ماء مدنا

ببروج قتال تحسبها في شم شواهقها قننا

من لدن ذرّ قرنُ الشمس الى أن جاء وقت الزوال

* * *

وهنا يجمل بنا أن نجمل لك القول على أنواع السفن التي يتألف منها الاسطول الاندلسي وُعددها وآلاتها (١) فمن تلك الاساطيل نوع يقال له « الشواني » جمع الشونة أو الشيني كما مر بك آنفا — وهي اجفان حربية كبيرة تقام فيها الابراج والقلاع للدفاع والهجوم — وابراجها ذات طبقات مربعة — فالطبقة العليا منها تقف فيها الجنود المسلحة بالقسيّ

ترمي ببروج — البيتين —

وبعدها

ضمن التوفيق لها ظفرا   من هلك عداتك ماضمنا

وقوله مخرقة هكذا قرأناها بالخاء المعجمة ولعل الصواب محرقة بالحاء اى ان ظهرت هذه البروج لعدو في حال احراقها قتل فى النو واللحظة لان معنى بطنا اصيب فى بطنه يريد مقتله والسكن النار وتذكي تشعل

(١) راجعنا فيما راجعناه فى ذلك رسالة لصديقنا الفاضل عبد الفتاح افندى عباده

والسهام ـ وفى الطبقة السفلى الملاحون الذين يجذفون بنحو من مائة مجذاف ، ويتراوح ما تحمله الشونة من المقاتلة ما بين المائة والخمسين وبين المائتين ـ وتجهز الشوانى وقت الحرب بالسلاح والنفطية والازودة بَلهَ الجنود البحرية . ومن أنواع الاصطول نوع يعرف «بالبوارج» جمع البارجة وهو اكبر من الشوانى ـ ومثله نوع يقال له المسطحات ـ ومن هذه الاساطيل نوع يقال له «الحراقات» جمع الحراقة وهى مراكب حربية كبيرة قرابة الشوانى بيد ان هذه تماز عن تلك بالمنجنيقات وتلك عن هذه بالقلاع ، فتراهم يحملون فى الحراقة مكاحل البارود والعرادات والمنجنيقات [1]

---

(١) مكاحل البارود هي المدافع التي يرمى عنها بالنفط وحالها تتنوع فبعض يرمي عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر وبعض يرمي عنه ببندق من حديد زنة عشرة ارطال وزنة مائة والعرادات جمع عرادة وهي آلة تصغر عن المنجنيق ترمي بالحجارة او السهام المرمى البعيد وبقدور النفط او العقارب وما اليها . والمنجنيق آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه

يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء ـ وهم يعملون الحراقة في صورة الاسد وفي صورة الفيل وفي صورة العقاب وفي صورة الحية وفي صورة الفرس كتلك الحراقات التي كانت للامين بن رشيد ، والتي يقول فيها الحسن بن هانيء

سخر الله للامين مطايا
لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن براً
سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو
اهرت الشدق كالح الانياب
لايعانيه باللجام ولا السو
ط ولا غمز رجله في الركاب

ثقيل وذنبه خفيف وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يوضع فيها الحجر يجذب حتى ترتفع اسافله على اعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر او النفط منه فما يصيب شيئاً الا عصف به عصفا

عجب الناس إذ رأوه على صو

رة ليث يمر مر السحاب

الى أن قال يصف هذه المطايا

تستبق الطير فى السماء اذا ما

استعجلوها بجيئة وذهاب

ذات سور ومنسر وجناحين

م تشق العباب بعد العباب

وكحراقة طاهر بن الحسين التى يقول فيها بعض الشعراء

عجبت لحراقة ابن الحسين

م – لاغرقت – كيف لا تغرق

وبحران من فوقها واحد

وآخر من تحتها مطبق

وأعجب من ذاك أعوادها

وقد مسها كيف لا تورق

أما الطرائد[1] فهي السفن التي تحمل الخيل للاسطول، واكثر ما يكون فيها اربعون فرساً — والقوافير[2] — فهي السفن الكبيرة التي تحمل الزاد والكراع والمتاع — والفلائك والقوارب والشنديات[3] فهي من توابع الاسطول كالطرائد والقراقير

أما عدد الاساطيل وآلاتها ومعداتها واسلحتها فهي الرماح والعصي والتراس والزرد والدرق والخوذ والمنجنيقات والعرادات

وقد رأيت الاندلسيين يستعملون في حروبهم البحرية النار اليونانية، وهي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات

---

(١) جمع طريدة وقد اخذ الاسبانيون هذا الاسم فقالوا Tariddo وقال الطليان Tartana وقال الفرنسيون Tarlan
(٢) جمع قرقور وهي المسماة اليوم كراكة أخذناها من الافرنج بعد ان اخذوها هم منا (٣) اخذها الروس فقالوا Schelaudo والطليان فقالوا Scialaudo والفرنسيون فقالوا Chaland

والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة يشدونها فى مقدم السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلا أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان الملتوت بالنفط فيقع على السفن فيحرقها حرقاً ، ومن غريب هذه النار انها تشتعل في الماء والهواء كالنفط ـ وقد رأيتهم كذلك يستظهرون بالبارود الذى يسمونه «الثلج الهندى» . ـ ونحن فلم نسمع بأمة من الامم اهتدت الى هذا «الثلج الهندى» قبلهم [١] ـ ذلك الى معدات أخرى لا اظنهم قد سبقوا اليها ، ارانيها الامير ابن رماحس فى

---

(١) قال كوندى المستشرق الاسباني : ان المعروف أن العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ وهم الذين نقلوه الى الاندلس ومنها اخذه الافرنج — قال : وقد استعمله العرب في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هجرية وفي محاربة الاسبانيين سنة ١٢٤٩ م واستخدمه صاحب غرناطة فى حصار باجة ثم نقله عن العرب في القرن الثالث عشر روجر باكون الانكليزى وغيره من الكيماويين وأول ما استخدمه الفرنج فى واقعة كريسي سنة ١٣٤٦ وانها منحة عظيمة فتحها العرب للاوربيين

الشونة التى كنا نشاهد منها حركات الاسطول ، مثـل التوابيت المعلقة فوق البروج ، وهى صناديق كبيرة مفتوحة من أعلاها ، يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها للاستكشاف ومعهم حجارة صغيرة فى مخلاة معلقـة بجانب الصندوق فيرمون العدو بها وهم مختبئون فى هذه الصناديق ، ومعهم عدا الحجارة قوارير النفط وجرار النورة وهى مسحوق ناعم مؤلف من الكلس والزرنيخ يرمون به الاعداء فى مراكبهم فتعمى ابصارهم بغبارها وقد تلتهب فيهم التهاباً ـ وقد رأيتهم وهم يرمونهم ايضاً بقدور الحيات والعقارب وبقدور الصابون اللين كي يزلقوا أقدامهم ـ ومن حيلهم التى يتخذونها وقاء لهم من اعدائهم انهم يحيطون المراكب بالجلود أو اللبود المبلولة بالخل والماء أو الشب والنطرون كي لا يفعل النفط فيها فعله ـ ومن حيلهم انهم يجعلون فى مقدم المركب هناة كالفأس يسمونها اللجام ، وهى حديدة طويلة محددة الرأس وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدم

المركب يقال لها «الاسطام» فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز فى مقدم المركب فيطعنون مركب العدو به فلا يلبث حتى ينخرق فينصب فيه الماء فيغرق ـ ومن تلك الحيل انهم اذا جن الليل لا يشعلون فى مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكاً وقد يسدلون على المراكب قلوعاً زرقاء ، فلا يرى العدو مراكبهم التى يشبه لونها لون الماء أو السماء : فسبحان الملهم من يشاء مايشاء ، ويخلق ما لا تعلمون لا اله غيره :

* * *

أما رآسة الاساطيل فقد جعلوا على كل اسطول قائداً ورئيساً فالقائد يدبر أمر سلاحه وحربه ومقاتلته ، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو المجاذيف ومعرفة مسالك البحر وطرقه بواسطة الرهنامج[1] وبيت الابرة الذى هي من مبتكراتهم ولم يسبقهم اليها سابق فيما علمنا . أما النظر فى الاساطيل كلها فيرجع الى امير واحد من أعلى طبقات

---

(١) الرهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب الذى يسلك به الربانية البحر ويهتدون به فى معرفة المراسي وغيرها

المملكة يلقبونه أمير البحر أو أمير الماء

***

وبعد أن أقمنا فى المرية ثلاثة ايام بلياليها تحملنا منها فى ركب فخم نبيل موف على الغاية ، فى الابهة والروعة والجلال ، قاصدين الى قرطبة حضرة هذه البلاد ، وكان فى طليعة الركب أمير البحر عبدالرحمن بن رماحس ، إذ أمره سيدي الحكم بن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وولى عهده كما اسلفنا أن يتلقانا فى وفد من وجوه الاندلسيين ويجيء معنا الى قرطبة مبالغة من الامير حفظه الله فى الاحتفاء بنا وبأبى على القالى البغدادى وبأبى عبدالله الصقلى الفيلسوف الذى وصل الى المرية قبل انفصالنا عنها ، وكان فى الركب من الاندلسيين الرمادى الشاعر وأبو بكر بن القوطية وأبو بكر الزبيدى وكثير من أدباء الاندلس واعيانها :

***

وقد بهرنا وسحر اعيننا وملك علينا الباينا ما رأيناه فى طريقنا من استبحار العمران فى هذا القطر الاندلسى ، فقد

كنا نمر فى اليوم الواحد بثلاث مدن واربع ، وفى حيثما سرنا نرى الحوانيت ـ فى الاودية ورؤوس الجبال ـ لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وما الى ذلك من ضروب الاطعمة . وكنا نتعثر تعثراً بالجداول والانهار ، تحفها البساتين وصنوف الزرع والنجوم والاشجار ، حتى لظننا انه ليس فى هذه البلاد صحراء مقفرة . أو ارض غامرة .

يا أهـل أندلس لله دركـم
ماء وظل وأنهار وأشجـار
ما جنه الخـلد الا فى دياركم
ولو تخيرت هـذا كنت اختار
لا تختشوا بعدذا أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنـة النـار

أما القرى والمعاقل والحصون فانها لا تحصى كثرة ، وقراها جميلة لتأنق اهلها فى اوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العين عنها

لاحت قراها بين خضرة أيكها
كالدر بين زبرجد مكنون

واكثر مدنها مسور من اجل الاستعداد للعدوّ ، وفي مدنها لذلك مايبقى في محاربة العدو مايربى على عشرين سنة ، لامتناع معاقلها ودربة اهلها على الحرب .

* * *

وكنا في طريقنا نتذاكر الادب ونتناشد الاشعار ونخوض في ضروب من الحديث لاعلينا إذا نحن أوردنا شيئاً منها في هذه الرسالة ، فمن ذلك أن ابا على قال من كلمة له « لما مررت بالقيروان ـ وأنا اعتبر من أمر به من أهل الامصار فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد كأن منازلهم من العلم محاصة ومقايسة ، فقلت إن نقص أهل الاندلس عن مقادير ما رأيت في افهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم فسأحتاج إلى ترجمان في هذه الاوطان ، ولكن لما جئت الى هنا قضيت عجبا من أهل هـذا الافق الاندلسي في ذكائهم [١] » ومن ثم كنا نراه [٢] يتغطى عن الاندلسيين

---

(١) هذه الكلمة هي لابي على القالى بنصها (٢) اى القالى

عند المباحثة والمناظرة ويقول لهم « إن عامى علم رواية وليس علم دراية ، فخذوا عني ما نقلت فلم آل لكم أن صححت [1] » ثم فرط منه قول ذهب فيه إلى تفضيل شعراء المشرق على شعراء المغرب ، فانتدب له أحد الادباء ممن كانوا فى هذا الركب وقال « إن أهل الاندلس أشعر الناس فيما كثّره الله تعالى فى بلادهم وجعله نصب أعينهم من الاشجار والانهار والطيور والكؤوس . لا ينازعهم أحد فى هذا الشأن ـ أما إذا هب نسيم ، ودار كأس فى كف ظبي رخيم ، ورجّع بمّ وزير [2] وصفق للماء خرير ، أورقت العشية ، وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية ، أو تبسم عن شعاع ثغر نهر ، أو ترقرق بطل جفن زهر ، أو خفق بارق ، أو وصل طيف طارق ، أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ، وبات مع من يهواه كالماء والراح ، إلى أن ودع حين أقبل رائد الصباح ، أو أزهرت دوحة

---

(١) وهذه كذلك للقالى (٢) الزير هو اسفل اوتار العود والذي يليه مثنى والذي يليه مثلث والذي يليه بم

السماء بزُهر كواكبها . أوقومت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها ، فاولئك هم السابقون السـابقون . الذين لايجارون ولا يُلحقون ، وليسوا بالمقصرين فى الوصف اذا تقعقعت السـلاح ، وسالت خاجان الصوارم بين قضبان الرماح ، وبنت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شـبه النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء ، وبالجملة فانهم في جميع الاوصاف والتخيلات ائمة ، ومن وقف على اشعارهم فى هذا الشأن فضلهم فيه على اصناف الامة » فقال ابو على[1] نعم وفى الحق ماتقول بيد ان شعراء المشرق فضلا ان شعرهم اصفى ديباجة ، وا كثر ماء وطلاوة ، واسد مسلـكا

---

(١) كل ماوضع على لسان ابي على وابي عبد الله الصقلى لاأصل تاريخي له وانما هذا الموضوع برمته هو من وضعنا وقد زورناه تزويرا لم نسبق فيما نظن اليه ولعلنا قاربنا الحقيقة في هذه المفاضلة بين شعر المشارقة وشعر الاندلسيين على انا لم نر لاحد قبلنا كلاماً فى هذا المعنى وسنوفيه حقه في الكلام على شعراء الاندلس في الرسالة الرابعة من هذه الرسائل

واوضح منهجا ، واشكل فى مبناه بالشعر القديم حتى لا يكاد يشذ عنه قيد شعرة ، وفضلا انه فى الاعم الاغلب رصين متماسك جزل قوي غير مهلهل النسج — تراهم مع ذلك ذهبوا به كل مذهب من القول ، وافتنوا فى مناحيه ايما افتنان ، وغاصوا على المعاني غوصا حتى بلغوا فى ذلك المبالغ ، ووصلوا الى الغاية التي لا وراءها ، وانى لا اظن ان لعلى بن العباس الرومى او بشار بن برد او ابي نواس اشباها و نظائر فى هذه البلاد ، على انى مع ذلك لست انكر على الاندلسيين ذكاءهم وتوقدهم، وانهم — كما رأيت وكما وُصفوا الى — «عرب فى العزة والانفة وعلو الهمة وفصاحة الالسن واباء الضيم والسماحة بما فى ايديهم والنزاهة عن الخضوع والاستخذاء — هنديون فى فرط عنايتهم بالعلوم ورغبتهم فيها وضبطهم لها — بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم وذكائهم وجودة قرائحهم ولطافة اذهانهم ونفوذ خواطرهم — يونانيون فى استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لاجناس الفواكه وتدبيرهم تركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بانواع

الخضر وصنوف الزهر ـ صينيون فى اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ـ تركيون فى معاناة الحروب والحذق بالفروسية والبصر بالطعن والضرب »

كبرتُ حول ديارهم لما بدت
منها الشموس وليس فيها المشرق

* * *

ولو ابصروا ليلى اقروا بحسنها
وقالوا بأنى فى الثناء مقصر

وهنا انبعث ابو عبد الله الصقلى الفيلسوف وقال ماتلخيصه . الذى اراه ان شعراء كل قطر من الاقطار او جيل من الاجيال لا بد من أن يتأثروا بالمحيط الذى يحيط بهم ، وان يصطبغ شعرهم بصبغة مايرون ويحسون من حولهم ، فالشاعر الجاهلى اوالمتبدّى فى الجاهليه والاسلام الذى لاتقع عينه الاعلى صحراء مقفرة ، اوسماء ماطرة ، او وحش كاسر ، او غزال نافر ، لم يرريفا ، ولم تغذه رقة الحضر ولم يشبع من طعام . قد خالط الغيلان ، وانس بالجان ،

وأوى القفر واليرابيع والظباء ، فانه حرًى ان لا يقول الا في جنس ماهو بسبيله من وصف البيد والمهامه والظبي والظليم والناقة والجمل وما الى ذلك ، في قول مونق مشرق واضح الطريقة لا تعمل فيه ولا كلفة ، يوائم امزجتهم وطبائعهم ، ويلائم المحيط الذى فيه عاشوا ، والجو الذي فيه درجوا ، والفطرة الاولى التي فطروا عليها ،والسذاجة التي هى من خاص صفاتهم ، وقد يكون لهم مع ذلك الحكمة البارعة، والكلمة الرائعة، والمثل السائر، والموعظة الحسنة ، مما يبهر اعرق المتحضرين ويصيب منهم اقصي غايات الاعجاب والاكبار ، ولكنه الوحي والالهام الذى تلهمه الفطرة القوية النقية البريئة ، ويؤتي الطبيعة الكريمة مايؤتي سهوا رهوا ، وليس هو بنتاج العقل المسموع ولا بثمار الملكات المكتسبة .

« وبعد » فاما المولدون وهم الذين تصح المفاضلة بينهم وبين شعراء المغرب لانهم جميعا تحضروا وعاشوا في رونق النعيم واعتركو بالدنيا واعتركت بهم فالرأى عندى ان يقال

ان الشعر لفظ ومعنى فاما اللفظ فان شعراء المشرق لان اكثرهم جاور الاعراب وأهل البادية ولقنوا اللغة منهم والتصقوا بهم ونُشِّؤا فى احضانهم وغذوا بلَبانهم ترى لهم الالفاظ المتخيرة ، والديباجة الكريمة ، والطبع المتمكن والسبك الجيد وكل كلام له ماء ورونق ، وترى شعرهم رصينا متسقا على استواء واحد لا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه ولا يجمح ولا يشتط ولا يأتيه الضعف والهلهلة والاسترخاء من اية ناحية من نواحيه : واما المعنى فأن فحولة شعراء المشرق الذين افتنوا فى المعانى افتنانا وغاصوا عليها وامعنوا حتى ظفروا بكل معنى عجيب يعمر الصدر ويذكي الروح ويشع فى دني العقل فتنجاب له ظلمته وتنير نواحيه وتنفتح مغالقه مثل بشار بن برد وأبى نواس وابن الرومي وهذه الطبقة فهم انما بلغوا هذه الدرجة لانهم من الموالى ابناء تلك الامم الحمراء الذين امترسوا بالحضارة قبل العرب امتراسا وعالجوها وعالجتهم وداوروا صنوفها من الصناعات والعلوم وما اليها وصرفوا فيها اعنة الفكر وقدحوا لها

زناد الرأى وهلم حتى أنمى ذلك على كر الغداة ومرّ العشي عقولهم، وشحذ اذهانهم واذكى ارواحهم واُكسبهم ملكات عبقرية عجيبة ، فورث ذلك منهم ابناؤهم وانحدر مع دمائهم وكان منهم هذا النبوع الذى نرى آثاره في السلام .

وما كاد ابو عبد الله يتم قولته تلك حتى صاح ابو بكر ابن القوطية وقال أشيخنا شعوبى [1] ؛ فقال ابو عبدالله

---

(١) أى على مذهب الشعوبية والشعوبية ـ ويسمون انفسهم أهل العدل والتسوية ـ يذهبون الى أن الناس كلهم سواء وأن ليس شعب أفضل من شعب وأن لا فضل للعرب على غيرهم واذ أبى العرب الا الذهاب الى أنهم أفضل من غيرهم ذهبوا هم كل مذهب فى الطعن على العرب وتنقصوهم وألصقوا بهم كل عاب ومنقصة ولعل هذا قد نشأ باديء ذى بدء من احتقار العرب هذه الامم الحمراء من الاعاجم ومن اليهم اذ كان العرب هم السادة وذوى الملكة والسلطان وكانت هـذه الامم عبيداً لهم وموالى أو مستظلين برايتهم مستعمرين لهم ، ونحن نوردهنا نبذاً من مفاخرات الفريقين ومحاوراتهم وتطاعنهم بعضهم على بعض لانه معنى مستلذ فضلا أنه ليس يخلو من فائدة . فن قول العرب أو المتعصبين للعرب على

العجم ـ ويراد بالعجم كل من ليس بعربي ـ فمن قولهم : لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان كما فى الاثر ان قوماً يقادون الى حظوظهم بالسواجير « جمع ساجور وهو القلادة أو الخشبة التي توضع فى عنق الكلب » وكذلك جاء في الاثر : عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة في السلاسل : على أن تعرضنا للقتل فيهم، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا في مكاتبتكم « المكاتبة أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه « يقسطه » عليه ويكتب عليه انه اذا أدي نجومه « اقساطه » فى كل نجم كذا وكذا فهو حر فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذي كاتبه وذلك أن مولاه سوغه كسبه الذى هو فى الاصل لمولاه » وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلا من الموالى يصلى به فقالوا له فى ذلك فقال انما أردت أن اتواضع لله بالصلاة خلفه . وكان نافع هذا اذا مرت به جنازة قال من هذا فاذا قالوا قرشي قال واقوماه واذا قالوا عربى قال وابلدتاه واذا قالوا مولى قال هو مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء . . وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ولا يدعونهم يصلون

على الجنائز اذا حضر أحد من العرب وان كان الذي يحضر غريراً .
وروي أن عامر بن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وعبادته كلمه حمران مولى عثمان بن عفان عند عبد الله بن عامر صاحب العراق في تشنيع عامر على عثمان وطعنه عليه فأنكر ذلك فقال له حمران لا كثر الله فينا مثلك فقال له عامر بل كثر الله فينا مثلك فقيل له أيدعو عليك وتدعو له قال نعم يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا، فاستوى ابن عامر جالساً وكان متكئاً فقال ما كنت اظنك تعرف هذا الباب لفضلك وزهادتك فقال ليس كل ماظننت انى لاأعرفه لاأعرفه. ويروى أن اعرابياً من بني العنبر دخل على سوار القاضي فقال أن أبي مات وتركني وأخاً لي وخط خطين ثم قال وهجيناً ثم خط خطاً ناحية فكيف يقسم المال فقال له سوار ههنا وارث غيركم قال لا قال فالمال بينكم أثلاثا قال ما أحسبك فهمت عني ، انه تركني وأخي وهجيناً فكيف يأخذ الهجين كما آخذ أنا وكما يأخذ أخي قال أجل فغضب الاعرابي .
ومن قول الشعوبية : اخبرونا ان قالت لكم العجم هل يعدون الفخر كله أن يكون ملكا أو نبوة فان زعمتم انه ملك قالت لكم وان لنا ملوك الارض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة وهل ينبغي لاحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي

سخرت له الانس والجن والطير والريح وانما هو رجل منا ، أم هل كان لاحد مثل ملك الاسكندر الذي ملك الارض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها ، وكيف ومنا ملوك الهند ، وان زعمتم انه لا يكون الفخر الا بنبوة فان منا الانبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ماخلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمدا ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وانما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ماشئتم وادعوا . ولم تزل للامم كلها من الأعاجم في كل شق من الارض ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الادوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهي أبدع صنعة ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة ومثل فلسفة الروم وما اليها وما كان للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها ويقمع ظالمها وينهي سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم وذلك أن للروم اشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض وكذلك الخطابة فانها شيء في جميع الامم وبكل الاجيال اليه أعظم الحاجة حتى ان الزنج ـ مع الغثارة ومع فرط الغباوة ومع كلال الحد وغلظ الحس وفساد المزاج ـ لتطيل الخطب وتفوق في ذلك

جميع العجم وان كانت معانيها أجفى وأغلظ وألفاظها أخطأ وأجهل ـ وقد علمنا أن اخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس وأعذبهم كلاماً وأسهلهم مخرجاً وأحسنهم أداء وأشدهم فيه تحنكا أهل مرو . ومن أحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر فى اللغة فليقرأ كتاب كاروند ومن احتاج الى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمثلات والألفاظ الكريمة والمعانى الشريفة فلينظر الى سير الملوك ، فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها ، وهذه كتبها فى المنطق التى قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند فى حكمها واسرارها وسيرها وعللها فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم وعرف أين البيان والبلاغة وأين تكاملت تلك الصناعة

قال الجاحظ ينضح عن العرب : أما الهند فان لهم معانى مدونة وكتب مجلدة لا تضاف الى رجل معروف ولا الى عالم موصوف وانما هى كتب متوارثة وآداب على وجه الارض سائرة مذكورة

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق . وكان صاحب المنطق نفسه

بكيء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه ، وبخصائصه . وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة

وفي الفرس خطباء الا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الاول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتي اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم

وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكرة ، ولا استعانة وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام ، والى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو في حرب ، فما هو الا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذى اليه يقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر . وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من

البيان أرفع . وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل . وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ أو يحتاجوا الى تدارس . وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولاقصد ولاتحفظ ولاطلب . وان شيئاً الذى فى أيدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب ، وعدد التراب ، وهو الله الذى يحيط بما كان ، والعالم بما سيكون

ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع ؛ ومن المزدوج ومالا يزدوج ؛ فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك الا في اليسير والنبذ القليل . ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير . وأخرى أنك متي أخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الاعراب الخلص ، ومعدن

إني وان كنت لا اري لعربي فضلا على عجمي إلا بالتقوي وان تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا باحسابهم ولكنه بافعالهم واخلاقهم وشرف انفسهم وبعد هممهم ، فمن كان دنيء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وان كان من

الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم أن الذي قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عياناً ، فهذا فرق مابيننا وبينهم

فتفهم عني فهمك الله ما أنا قائل في هذا . واعلم أنك لم تر قوما قط أشقي من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدي على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصباً ، ولا أقل غنما ، من أهل هذه النحلة . وقد شفي الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ؛ وتسعر تلك النيران المضطرمة . ولو عرفوا أخلاق كل ملة ؛ وزى كل لغة ، وعللهم في اختلاف أشاراتهم وآلاتهم ، وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختلقوه ولم تكلفوه ، لأراحوا انفسهم ، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم . اه ملخصا من العقد والبيان والتبيين. ويظهر ان هؤلاء الشعوبية نجمت اوائل الدولة العباسية وان كانت جرثومتها اقدم من ذلك.

بنى هاشم في ذؤابتها ، ومن أمية فى ارومتها ، وقيس فى اشرف بطن منها. ومن ثم يقول الله جل شأنه ان اكرمكم عند الله اتقاكم، ويقول رسول الله فى خطبة الوداع: أيها الناس إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ـ كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمى فضل الا بالتقوى فانى مع هذا أقول ما قاله ابن المقفع ـ وقد سأل جماعة من أشراف العرب ـ أى الامم أعقل، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا لعله أراد أصله من فارس ـ فقالوا فارس، فقال ليسوا بذلك ، انهم ملكوا كثيراً من الارض، ووجدوا عظيما من الملك ـ وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الامر فما استنبطوا شيئا بعقولهم ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم ، قالوا فالروم : قال اصحاب صنعة قالوا فالصين قال اصحاب طرفة. قالوا الهند ، قال اصحاب فلسفة ، قالوا السودان قال شر خلق الله ، قالوا الخزر قال بقر سائمة ، قالوا فقل قال العرب . فضحكوا ـ فقال « أما انى ما اردت موافقتكم ولكن اذفاتنى حظي من النسبة فلن يفوتنى حظى من المعرفة

ان العرب حكمت على غير مثال مَثَل لها ، ولا آثار اثرت اصحاب إبل وغنم ، وسكان شعَر وأَدَم ، يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما يشاء فيحسن ، ويقبّح ما يشاء فيقبح ، أدّبتهم نفوسهم ، ورفعتهم هممهم ، واعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في انفسهم ، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، على الخير فيهم ولهم فقال ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فمن وضع حقهم خسر ، ومن انكر فضلهم خسر ودفع الحق باللسان ، اكبت للجنان »

بيد أن العرب لم يكن لهم بادىء ذى بدء دراية بالحرف والصناعات ، وبالعلوم وتعلمها الذى هو فى عداد الصناعات ، وذلك لمكانهم من البداوة ، ورسوخ اقدامهم فيها . ومن ثم كانت الشريعة الاسلامية ـ اذ كان القوم

اكثرهم اميين ـ تتناقل في صدورهم ـ وجري الامر على ذلك ازمان الصحابة والتابعين ـ فلما بعد النقل من دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم كثر استخراج احكام الواقعات من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الاسلامية ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت فى جملة الصنائع . وهو معلوم أن الصنائع من منتحل الحضر، والعرب ابعد الناس عنها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ثم الفارسى من بعده ثم الزجّاج، وكلهم عجم فى انسابهم، وكذا حملة الحديث وعلماء اصول الفقه وعلماء الكلام والمفسرون، وا كثر فقهاء الامصار مثل الحسن بن ابي الحسن ومحمد بن سيرين فقيهى البصرة وعطاء بن ابى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار فقهاء مكة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح فقهاء المدينة وربيعة الرأى وابن ابى الزناد فقهاء

قباء وطاوس وابن منبه فقيهي اليمن وعطاء بن عبد الله فقيه خراسان ومكحول فقيه الشام والحكم بن عتيبة وعمار بن ابي سليمان فقيهي الكوفة وهلم ، وبالجملة لم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم وظهر بذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم با كناف السماء لناله قوم من أهل فارس ، واما العرب الذين ادركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فقد شغلتهم الرآسة في الدولة وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فانهم أهل الدولة وحاميتها واولو اسياستها مع ما يلحقهم من الانفة عن انتحال العلم بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء ابداً يستنكفون من الصنائع والمهن وما يجر اليها ، ودفعوا ذلك إلي من قام به من العجم والمولدين فكان امتراس العجم من القديم بالحضارة وما تستتبعه من العلوم والصنائع سببا في كيسهم وفطنتهم ونماء عقولهم ورجحان احلامهم ومرآن ملكاتهم على

الاستنباط والتخريج والتماس الحيل وتوليد المعانى، ومن ثم كان شعر الموالى ممتازا عن شعر العرب الاقحاح باستفتاح اغلاق المعانى الدقيقة العبقريات والافتنان فيها وتلوينها بكل لون ، وهاك شعر بشار وأبى نواس ومروان بن ابى حفصة وابن الرومى، ومن اليهم من الشعراء الموالي تر الشاهد الصدق لما اقول ، وعرب الاندلس منذ فتحهم هذه البلاد إلى وقتنا هذا لا تزال نزعتهم عربية فى كل شيء حتى فى شعرهم إلا ما ا كسبتهم إياه طبيعة بلادهم وخصوبتها، فمن ثم كان فرق ما بين شعرهم وشعر المشارقة فى الجملة

***

وبعد أن اتم ابو عبد الله كلامه افضى بنا الحديث إلى ذكر الغزال الشاعر الاندلسى الظريف ـ وملحه ونوادره وهذا الغزال ـ كما أخبرنا ابن القوطية ـ هو يحيى بن حكم البكرى الجيانى الملقب بالغزال لجماله، وقد كان في المائة الثالثة من بنى بكر بن وائل، وكان حكيما شاعراً عرافا، وكان آية فى الظرف وخفة الروح ، وجهه الامير عبد الله بن الحكم

المرواني إلى ملك الروم فاعجبه حديثه وخف علي قلبه وطلب منه أن ينادمه فتأبى ذلك واعتذر عنه بتحريم الخمر ، وكان يوماً جالساً معه وإذا بزوجة الملك قدخرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حسناً فجعل الغزال لايميل طرفه عنها وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه ، فانكر ذلك عليه وأمر الترجمان بسؤاله ، فقال له عرفه انى قد بهرني من حسن الملكة ماقطعنى عن حديثه فانى لم أر قط مثلها وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوقته إلى الحور العين فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الختان وتجشم المكروه فيه مع خلوه من الفائدة، فقال للترجمان عرفها أن فيه اكبر فائدة، وذلك أن الغصن إذا زُبر قوى واشتد وغلظ ، وما دام لايفعل به ذلك فانه يبقى رقيقاً ضعيفاً ، فضحكت واستظرفته . ومن نوادره أنه أرسل مرة سفيراً إلى بلاد المجوس « اسوج ونروج » وقد قارب الخمسين، وقد وخطه الشيب ، ولكنه

كان مجتمع الأشد فسألته زوجة الملك يوماً عن سنه فقال مداعباً لها عشرون، فقالت وماهذا الشيب فقال وماتنكرين من هذا، ألم ترى قط مهراً ينتج وهو أشهب، فأعجبت بقوله فقال فى ذلك ـ واسم الملكة تود ـ

كلفتَ ياقلبي هويِ متعبا
غالبت منه الضيغم الاغلبا
أنى تعلقت مجوسية
تأبي لشمس الحسن أن تغربا
اقصى بلاد الله فى حيث لا
يلفِى اليه ذاهب مذهبا
ياتود ياورد الشباب الذي
تطلع من ازرارها الكوكبا
ياأبي الشخص الذى لااري
احلى على قلبى ولا اعذبا
ان قلت يوما ان عيني رأت
مشبهه لم اعد ان اكذبا

قالت ارى فوديه قد نورا

دعابة توجب ان ادعبا

قلت لها ما باله انه

قد ينتج المهر كذا اشهبا

فاستضحكت عجبا بقولي لها

وانما قلت لكي تعجبا

ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحكت وامرته بالخضاب فغدا عليها وقد اختضب وقال

بكرت تحسن لي سواد خضابي

فكأن ذاك اعادني لشبابي

ما الشيب عندي والخضاب لواصف

الا كشمس جللت بضباب

تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا

فيصير ما استترت به لذهاب

لاتنكري وضح المشيب فانما

هو زهرة الافهام والالباب

فلدىّ ما تهوين من زهر الصبا

وطلاوة الاخلاق والآداب

ومن شعر الغزال الهين اللين الذى يرتفع له حجاب السمع ، ويوطأ له مهاد الطبع كما يقولون قوله

قالت أحبك قلت كاذبة

غُرّى بذا من ليس ينتقد

هذا كلام لست اقبله

الشيخ ليس يحبه أحد

سيان قولك ذا وقولك

م أن الريح نعقدها فتنعقد

اوان تقولى النار باردة

اوان تقولى الماء يتقد

وقوله

لا ومن اعمل المطايا اليه

كل من يرتجى اليه نصيبا

ما أرى ههنا من النـاس إلا

ثعلبـاً يطلب الدجاج وذيبـا

أو شبيهـاً بالقط ألقى بعينيـ

ـه إلى فارة يريد الوثوبا

وحدثنا أبو بكر بن القوطية قال، كان عباس بن ناصح الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء يغدو على قرطبة ويأخذ عنه ادباؤها فمرت بهم يوماً قصيدته التي اولها

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم

إذ المرء لم يعدم تقي الله والـكرم

حتى مر بهم قوله

تجاف عن الدنيـا فما لمعجَّز

ولا عاجز إلا الذي خط بالقـلم

وكان الغزال إذ ذاك في الحلقة، وكان حدثاً نظاماً متأدباً متوقد القريحة فقال : أيها الشيـخ وما الذي يصنع مفعل مع فاعل، فقال كيف تقول، فقال كنت أقول فليس لعاجز ولا حازم، فقال له عباس والله يابني لقد طلبها عمك فما وجدها .

« تمت هذه الرسالة »

وقد كتبت فى قرطبة بقصر سيدى الحكم ولى عهد المسلمين ، وابن مولانا عبد الرحمن الناصر أمير المؤمنين، وذلك فى شهر اغشت الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة، الموافقة سنة خمس واربعين وثلثمائة هجرية

استدراك

ندّ فى الصفحة الاولى من هذا الكتاب هذه الغلطة وهي فى السطر الاخير « واخلاق سمجن فهم » وصوابها « فهن » . وفي صفحة ١٩٢ فى السطر الاخير « فقهاء » وصوابها « فقيها » .

داخل تيسير